الطبعة الأولى 1442 هـ - 2020 م
(ISBN) : 978-9947-79-933- 8
الإيداع القانوني: 2020/12

اسم العمـــــل: أنثى نبضها حكاية
اسم المؤلــف: إيمان بلمدانـــي
تصميم الغلاف: زكريــــاء رقاب
إخـــــراج: أحمد منصـــوري
تدقيق لغــوي: إكرام مباركـــي
المدير العــام / سميرة منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 79 47 80 033 / 19 04 68 0770
واتساب/86 73 49 0675
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

إيمان بلمداني

مجموعة قصص قصيرة

أنثى

نبضها حكاية

المثقف للنشر والتوزيع

إهـــــــداء

إلى كلّ متعبة وفي قلبها غصّة قتلت رغبتها بِكُلّ شَيء
ألمٌ، وجعٌ، صوتٌ مخذولٌ ببكاء مُحتبسٍ بالداخل بقلب يكسوه الحزن.
تأكّدي بأنّه دائما ما يكون هنالك... " أرواح "... طاهرة... مُحبّة... جَميلة...
ونبعٌ منْ نقاء! تَسّتحق أنْ نعيش لِأجلها...

إلى أمّي ومأمني وأمَاني وإيمَاني وأمّتي واطمئناني.

إلى مسندي وسندي واتّكائي، عُمقي وقوّتي ومُلكي ومملكتي، وضلعي الثابت الذي لا يميل.
إلى أبي الذي أراه بعين قلبي جنّةً، يا من بقربك مُر الحياة يطيب.

إلى كلّ روح طاهرة ومحبّة وجدتها يوما سندا لي.

♥♥♥

محاربة

أخذت تذرف دموع الحنيّة الممزوجة بالشفقة والأمومة الدافئة مهادًا ناعما ودفئا تبسط فيه روحها أجنحة تضمّ بها على صدرها، أطفال صغار كان أكبرهم في عامه الثامن بعد أن رحل عنهم زوجها في سفر لا عودة منه،

ترك لها خمسه أرواح لا تحمل لهم غير ينبوع حنان وخوف زمان وصبر ليالٍ طوالٍ مشحونة بألم وفراق زوجها وحبيبها الحاضر الغائب الذي شغل حيّزا كبيرا من الرّوح والقلب بودّ لو قسموه لكفى وفاض،

كان ذلك الوقت بعد الثانية صباحا بقليل أخذت تنظر لأطفالها وهم في سبات عميق،

حملت نفسها وطبعت على خد كلّ واحد منهم قبلة ناعمة هادئة وهي تسمّي الله وتقول : "ما شاء الله حفظكم الله "

كانت تأخذ منهم أنفاسا عميقة تدخلها في جوفها وتعبقها بطيب روحها الطاهرة وتخرجها زفرات كعطر الرياحين والورود وتنثره عليهم مرة أخرى في أسمى درجات الأمومة.

كانت تحسّ روح زوجها تحلّق وتطوف حولهم في ضراعة أن كوني الملاذ الآمن لفلذات كبدي، فكان الرد يأتي من داخل روحها هل توصيني على نور عيوني وكياني؟

شخصت ببصرها إلى السّماء في خشوع وتضرع وقالت: اللهم مكنّي من ديني ووفقني في أولادي، ثمّ ركعت ركعتين كان ذلك في الثلث الأخير من الليل ثمّ نهضت لتكمل باقي هندام أتى به أحد الزبائن في صباح الأمس، علّها ترتزق منه شيئا يعينها في إطعام أطفالها فهم يملؤون عليها حياتها طعما آخر وهم ثمرة ووداد صادق، وكثيرا ما ترى في أعينهم ما يمسح عنها الآلام والشقاء ويضفي على حياتها لمسات جماليّة ترجعها لماضٍ رائعٍ جميلٍ تتراءى لها فيه كلّ تفاصيله في أحرف كليمات أطفالها فهم يحملون ملامح وسمات حبيب الرّوح.

ظلّت تزرع في عقول أطفالها بذور الألفة والتوادد والتعاضد والصبر والصدق والمروءة، وصارت هي محور حياتهم الذي يدورون حوله كالنّجوم حول القمر، وهي تمتلك قلوبهم حبّا شديدا أكيدا،

ظلّت تكدح وتشقى وتتعب بكلّ صبر ويقين، فكانت نعم الأمّ الصالحة التي تعمل لله ولهم وللدنيا، إنّها تحتضن كنوزا منيرة سيضيئون لها الدنيا حينما تغرب شمس حياتها، فهي تبرق الآن شعاعا عظيما وتمطر خيرا وبركة في تربة خصبة لتثمر أطيب الثمر.

وتمرّ الأيّام وترى الأمّ حصادها نعيما متدفقا، فهي لم يزغ بصرها ولم تضل و تتبع غير هدى الله سبيلا آخر، وألبست نفسها ستر الفضيلة والتقوى ووضعت مخافة الله تاجا على جبينها نورا، فأولادها الخمسة وصلوا أرفع الدرجات وكانوا يتسابقون لخدمتها برا وإكراما لها

وإرضاءً لله وإثباتا لجميل حق الأمومة، فكانت تمثّل لهم كلّ شيء فأصبحوا يهبونها نفس الانطباع، لم تتأخّر سنة من حج بيت الله إلى أن توفاها الله وهي راضية مطمئنة أنّها أدّت رسالتين بكلّ صدق وتفانٍ ونكران ذات الأمور الحياتيّة والزوجيّة.

★★★★★★

زوجة عاصية

جعلت بينه وبين أمّه الأرملة حاجزا منيعا، أغلقت كلّ منافذ الدخول وردمت كلّ عاطفة تربطه بأمّه المغلوبة.

كان الهاجس الذي يؤرق الأمّ ابن منزوع وزمن قاسٍ تتمدد ظروفه في كلّ نواحي بيتها الكئيب، بعد أن كان يعجّ بالحياة والحيويّة بأصدقائه ومعارفه وأهله وحينما احتضنه بيت وزوجة ابتعد نهائيّا عن أمّه الوحيدة وهي تعيش خريف عمر مجدب وأيّام خوالي من كلّ أنيس يبعد الوحشة ويستنطق صمت الأحزان، كانت أمّه تتضور جوعا فتخرج تبحث عن شيء يسدّ رمقها عند الأهل والجيران بعد أن كفّ الابن يده عن إطعامها والسؤال عن حالها، فكانت تستحضر الماضي بين ركام الحسرة والضياع ثمّ تدعو له بالخير

بعد كلّ ما جرى.

كانت يحترق قلبها بأناته وآهاته كساقية تعاقبت عليها الأعوام،

أخذت زوجة ابنها تكنّز المال الذي بحوزة زوجها وتخفيه بعيدا حتى لا يتملّكه حنان الأمومة ويمدّ لها شيئا،

فقطع الارتباط يباعد الحنين ويقتل الأشواق والرّوح.

كانت كلّما ذكر اسم أمّه تنشر سموم الكلام وسخيف العبارات واللوم، ثمّ تقول أنّ أمّك لاتعرف أن تدّخر لزمانها فلن نسمح أن تدمرنا

بتكاليفها ومصروفاتها التي لا تنتهي فنحن أحوج.

كان يصدّق ما تقول وبأنّها تحفظ حقه من الضياع.

وتمرّ الليالي حبلى بكلّ اليوم والأيّام تنطوي في تتابع رتيب،

وذات يوم عاصف تتلامس أسلاك كهربائيّة داخل غرفة زوجته فلا تُبقي على شيء

إلّا ما يرتديانه على الأجساد.

فالنّار حصدت ما اكتنزوا من مال وخلّفت رمادا يكحل العيون فنالوا سرابا...

★★★★★★

عبور الحياة

تحصى سنوات مُرةٍ عديدة

مرّت في اتّكاءة، تداري وتلتمس وتخفي وتكبت في نفسها كلّ مؤذٍ بأقسى عذابات وغلب، تمتهن التسويف وقتل الحقائق بين لحظات الصواب وظلال الخديعة، لتسير الحياة مهيلة تطرح الرضاء على أبنائها، وكسب ود زوجاتهم، فقبولها عندهن يفسح الطريق مرورا لاستمرار نوالها ومنح العبور رغبة خلال جمعهم.

ترمّلت في عمر باكرا، ارتكزت على بقايا فتات حياة ضنكة وبعض أطراف أيادي تمنح ثمّ تمنع.

استوت الأسرة على مشارف مرموقة إلّا هي، ظلّت في تداعيات عتيقة، يتكسر في عرض الحياة شراعها فتستغيث مقتا وغلا مدفونا على سفوح نفسها البسيطة بين القبول والاحتمال صمتا مميتا، تغلي براكين روحها فتسبغها ابتسامة هوجاء تطمر كلّ شك

خوفا من شتات حياة من وفدوا من رحمها واستقرارهم بين زوجات امتهنّ التقصير والتقليل من قيمة منحتهن فلذات كبدها، حين اقتحموا الحياة وغادرو بعيدا عنها، احتمت بجوار أحدهم، لم يطرأ جديد، انفردت لوحدها بغرفتها، أحسّت ببعض الرّاحة وانقطاع المال، كانوا يرمونها قطرات من المال بوصاية من أمسكن زمام أمورهم خدعة

وتضليلا، أصيبت بداء السكري فكانت بين التشهي والاحتمال.
سنين تمضي تخوض أوحال الحياة ببصر ضعيف وبصيرة مرهقة وعقل أتلفته سنين ضياع وانكسار، فغابت ذاكرتها، حين أرادوا اِلتئام جروحها نكأت جروح أنفسهم مكالًا ما كالوا.

ما ذنبها!

أزالت دمعة سالت على خدها، أتاها صوت الجارة سائلة أين أمّك؟ لم أرَها منذ أسبوع؟ أجابت بقلب ينفطر ألما وحسرة:
أمّي تمكث هذه الأيّام مع جدتي لخلاف مع أبي.
أصاب الجارة الاندهاش وتملّكها الفضول... وإخوتك الصغار من يقوم بواجباتهم؟
قالت أنا وأبي حينما يعود من العمل
همست الجارة لنفسها... طفلة في العاشرة تحتمل أربعة أطفال؟ أيّ أمر فعل الرجل لتغادر امرأة أطفالها وتتركهم على عاتق طفلة لم يستوي عودها ولا تحتمل هذا العبء؟ وأيّ قلب يحمل كلّ تلك القسوة والغرور؟ هل هو إذلال للرّجال أم عقوبة يكتوي بنارها؟ تبّا لامرأة لا تعي دورها وتبّا لزوجة لم تتفهم الحياة ولا ترتقي لبناء أسرة. وتبّا تترك الأطفال لرجل لا يستطيع إدارة بيته...
كانت الطفلة تلامس أناملها الجدار بنظرات تكاد تخترق الأرض.
تحيطها الحيرة من كلّ جانب...
والجارة تسمّرت قدماها وهي تنظر في أسى، ثمّ أثارها الفضول مرة أخرى
قالت: أيّ سبب كان بينهما؟

صمتت الطفلة برهة ثمّ قالت:

لا أدري، لكنّي كنت أسمع حديث أمّي بعد أن خرج أبي معتذرا عن تنفيذ طلبها، ردّت الجارة في سرعة:

ماذا قالت؟ ماذا قالت!

بعد أن كفكفت الطفلة دموعها وتلفتت يمنة ويسرى

كانت أمّي تطالبه ببعض المال للذهاب للكوافير لحضور زواج صديقتها، وعندما اعتذر أبي أنّ كلّ ما يملك لا يغطّي احتياجات البيت ثارت واستشاطت غضبا فدفعت بالباب حتى تكسّر بعضه ثمّ أصبحت تطاول وتكثر من اللوم والعتاب بتقصيره في واجبها،

كانت الجارة تنصت بتلهف ثمّ ماذا؟

قالت الطفلة: عندما أغلقت أمّي كلّ أبواب الإعتذار والأعذار خرج أبي موليا وجهه صوب الشارع، فخرجت أمّي ولم تعد.

قالت الجارة ألم تزركم طول فترة هذه الغياب؟

قالت الطفلة لا لكنّي أريدك أن تساعدني في أخي الصغير فهو كثير الصراخ ولا أستطيع معه تجهيز الأكل لإخوتي....

اعتذرت الجارة بأنّ لا وقت لها وتركت الطفلة في حيرة من أمرها.

★★★★★★

تضحية

ما هي عليه ليس وليد صدفة بل ما عاشته وتعايشه صقلها كما تصقل النّار الحديد..

كانت فقيرة معدمة؛ ملابس بالية وجسم هزيل لقيمات كانت بالكاد تسدّ بها الرمق...

أمّا عن المحفظة فلا تسأل، كان كيس خضار لطالما تمزّق وهي في طريقها للمدرسة تجري كالبرق خوفا من معلّمتها بعد أن أنهكتها زوجة أبيها بأعمال البيت الشاقة وشراء الأغراض...

كانت عندما تصطفّ مع باقي التلاميذ أمام باب المدرسة تسمع همسهم بين مستهزئ وناقد ومحتقر...

أحسّت بألم يشقّ الفؤاد... لكن لم يكن باختيارها أن تكون معدمة...

تعالَي....

هكذا تختارها المعلّمة من بين أقرانها... لتحمل لها الكراريس وتدخل معها في شموخ تحت أعين الجميع وكأنّها نجمة السهرة لتشقّ الجموع ترمقها عيون بنظرات كلّها حقد وغيرة...

أكيد لم تخترها معلمتها لفقرها ولملابسها البالية... بل لأنّها مجتهدة في دراستها مكافحة ومناضلة...

رسمها جميل...

صوتها كالعندليب في الموسيقى...
خطها كأنّه لأديب متألق...
علاماتها ممتازة...
لم تثنها قلة الحاجة على الاجتهاد ونيل أكبر المراتب....
ومن هنا بدأت رحلتها مع الثقة بالنّفس... و الإصرار على تجاوز المحن.
فكان لها الأثر أينما حلّت... لم يدم حلمها كثيرا سرعان ما أوقفها أبوها عن الدراسة ولم تدخل الجامعة ووجدت نفسها زوجة لزوج شقيقتها، والدها اختصر طريق الحزن وأخذ يرمّم بقايا بيت شقيقتها الذي انهار بموتها، زوجة أبيها أكدّت لها أنّ والدها هو صاحب الحل والربط والقرار، وعليها الطاعة والقبول.
حين وجد الوالد الغرفة قد امتلأت بالوجوه التي جاءت لكيّ تعزيه بوفاة ابنته وقف وحضن زوج ابنته وقال:
- كنت من أحسن الأزواج، لذلك حتى تبقى الرابطة بيننا، قررت أن أعطيك ابنتي الثانية....!!
أسقط بيد الزوج الذي لم يستطع الرفض أمام الرّجال فمن العار أن يرفض....!!
لم تتوقع مشاعرها أن تدخل في غابة الأخت الراحلة، وأن تصنع من أغصان أشجار العلاقة التي كانت محرمة تاجًا تلبسه أمام الجميع، أن تتمدد فوق سرير كان سابقًا قلعة غامضة وأبوابا موصدة.

انتقلت من بيت أهلها إلى بيت أختها الميتة بهدوء، سيارة سوداء جاءت في منتصف الليل، حملت ثيابها وبعض الأشياء الضروريّة، اختفى الفرح عن الوجوه التي وقفت تودّعها، تغلغل في الوجوم بريق الذنب العابر، الذي رفض تصديق الحكاية التي بدأت بفرحة وطرحة وانتهت بزواج مبتور، فوق صفحة تحتوي إعادة نظر للقدر، بعد أن أراد قطع الصلة.
لم تسمع صدى موسيقى تعزف لها، كانت الدموع تنساب على الخدود بصمت، لم يحاول أحد أفراد عائلتها تقليص المسافات والتقرب منها، وسؤالها عن رضاها وقبولها، تعامل معها والدها كأنّها لا شيء، مجرد بضاعة تنقل من هنا إلى هناك.
عاشت حياتها وهي ترفع راية القبول وطأطأة الرأس، لم تعترض يومًا، حتى أنّ زوجة أبيها تمدحها بقولها " فم دون لسان " "اللّه يرضى عليها نحن نقوم بالخياطة وهي تلبس" عاشت العمر داخل برميل الخضوع، تتنفس جدران الرضى دون تذمر... رأت شقيقاتها وهن يذهبن إلى المدارس ويتعلّمن في الجامعات، وعندما طلبوا منها البقاء في البيت لأنّ والدها لا يملك المال لتعليم ثلاث بنات في الجامعة، بقيت في البيت تساعد زوجة أبيها في عمل البيت، حتى عندما تزوجن بقيت ترعى أولادهن.

لم تطلب يوما شيئا لها، بينما شقيقاتها يصرخن ويشتمن ويحصلن على كلّ شيء، وإخوتها الذكور يحصلون دون صراخ أيضًا على كلّ شيء، هي تكتفي بكلام زوجة الأب عنها هي الهادئة المؤدبة الحنونة، هي أمّ البيت....!!

كانت تعرف أنّهم يحرثون في أرض الاستغلال، يستغلونها علنًا، رغم ذلك بقيت مطيعة وتتنازل، ولم تحاول قطع الحبال التي طوّقت عنقها.

زوج أختها حاجز من الفولاذ، من الصعب اختراق أحاسيسه الباردة، لم تستطع التحرر من روح أختها التي سكنت كلّ قطع الأثاث وهواء البيت، تربعت فوق اللمسات ورائحة الزوج الذي يقترب منها، كانت تشمّ رائحة عطره سابقًا، لكن لم تشعر يومًا بأنّ هذه الرائحة ستعشش في أنفها، وترحل في أعماقها، لتصنع منها وجعًا مدججًا بالحيرة والتردد.

إنّها تتصرف كضيفة لا تمت للبيت بصلة، أختها غائبة وسترجع، لم تبح لأحد عن مشاعرها، وزوج شقيقتها ما زال زوجًا لأختها، هي مجرد جسر ستخطو عليه أختها عندما تعود، ولم يحاول أحد سؤالها عن مشاعرها...

جاء والدها لزيارتها، تذكّرت أنّ والدها يزورها فقط في الأعياد، اليوم لا يوجد عيد، رحّبت به، بعد فترة صمت:

-غدا يجب أن تأتي معي لإجراء بعض الفحوصات!!

اعتقدت أنّه حريص على صحتها ويريد الاطمئنان عليها، أو فكره مشغول لأنّها لم تحمل حتى الآن...!! قال لها والدها بصوت منخفض:

- أنت تعلمين أنّ أخاك عنده فشل كلويّ، ولم يعد غسيل الكلى ينفع، من الضروري زرع كلية، واخترناك حتى تتبرعي بالكلية.

لم تقل " لا" طأطأت رأسها، توجهت إلى المستشفى وأجرت جميع الفحوصات اللازمة.

بعد عدة أيّام كانت النتيجة مطابقة لخلايا وأنسجة ودم أخيها...

وقّعت على جميع الأوراق المطلوبة للتبرع، ووالدها يقف فوق رأسها، يبارك تنازلها عن كليتها....!!

بينما هي مستلقية على السرير الأبيض، مستسلمة لأيدي الجرّاحين والمقصات والسكاكين، سألها أحدهم:

- هل أنت موافقة على إعطاء كليتك؟

- والدي طلب وأنا لا أرفض له طلبا...!

زوجها أعلن رفضه للتبرع، تشاجر مع والدها وقال:

- إذا تبرعت زوجتي بكليتها لن ترجع إلى بيتي، أنا أريد زوجة صحيحة الجسم، لا أريد زوجتي الثانية تموت.

والدها قال بأعلى صوته " لن تذهب لبيتك، البيت الذي ربّاها ما زال مفتوحا ".

تبرعت بكليتها، لم ترجع لبيتها، لأنّ زوجها لا يريد زوجة ناقصة حسب ما قال وهو يتوعد ويهدد بالطلاق.

تطلقت...

رجعت إلى البيت وعاد الإخوة والأخوات وأولادهم إلى البيت يرفلون بالحريّة والرعاية، وعادت تعتني بكلّ واحد، وكلّما نظرت إلى الخط البنيّ الذي يشقّ جسدها، تشقّ روحها وتشعر أنهّم بنزع كليتها نزعوا الكثير من صمتها.

لم تعد زوجة أبيها مع الكبر قادرة على أن ترى بعينها اليمنى، وقد أعلن الطبيب لأبيها أنّها بحاجة إلى قرنيّة وعليها الانتظار لعلّ هناك من يتبرع لها بقرنيته بعد وفاته.

بينما هم يجلسون أمام شاشة التلفزيون يتابعون أحد المسلسلات وصراخ الأطفال الذين جاءوا برفقة آبائهم وأمّهاتهم للاطمئنان على صحة الأمّ تختلط بحديث الكبار، الذين أرادوا عرض عضلات محبّتهم للأمّهم ردّد الأب ما قاله الطبيب عن القرنيّة وقضيّة التبرع.

شعرت أنّ العيون تخترق عيونها، أنّهم ينظرون إليها، يحدّقون في تجويفات عينيها، يبحرون في البياض الذي تحوّل إلى مصعد، يصعدون به إلى رضا الأمّ، ينتظرون منها الآن التنازل عن قرنيتها، لكنّ طريق تنازلاتها المنحدرة وصلت لصخرة القرار والفرار، رددت في نفسها هذه زوجة أبي ليست أمّي وهي سبب فصلي عن الدراسة،

دائما ماكان يقال لي اعتبريها أمّك فضحيّت من أجلها لكن لا توجد أمّ تفعل هذا لابنتها فتدمر أحلامها

قال لها والدها :

- كلّ واحدة من إخوتك لها عائلة، وإخوتك لهم عائلات، أنت الوحيدة التي ليس لها أحد.

لم يسمعوا ردّها، بل شاهدوا حمم البراكين وهي تتساقط من صراخها... بقيت تصرخ حتى هذه اللحظة.

★★★★★★

خبيثة

تغرورق عينيه ويطرق مبتئسا، تدور بخلده أسئلة حائرة، ما بال الحياة تنهش أرحاما تفتتت بعد وصال، وتفرّقت بعد جمع، سنين ضمخت حنين اللحظات، أخوة تعضّد متانة الحس والانتماء لجوف أخرج من أحشائه أشقّاءً، كانوا حنينا دافقا، ازدهت به الأيّام وعطّرته الأمسيات أنوار زاهية، تساقت الأنس بطعم الشهد ألفا ووِدادا، طرح الطيبة قلوبا تأتلف بجنح الأحزان وتتعاضد في وجه المكاره، كتلة تتقاسم الآلام، فتزدهي الحياة، وتضيء الأفراح مشاعلا، تملأ الآفاق تلوّن الفضاءات بهجة وحبور،

كان يفتقد كلّ نبض تلاشى بين ليلة وضحاها، ضاعت معالم الجمال والود في ذلك المتسع الدافئ، انزاحت الألفة وذاب ما بالنّفوس من حبّ، تبدل المأوى، سهام قاتلة، ونظرات ترسل أسنّة الغبن تهتك أستار وشائج الرحم الواحد فتقطع أحلى سنين كانت رحمة وربطا متينا، حين تمّ زفافها لأخيه الأكبر.

تسللت بينهم بهدوء، أشعلت شرارة كلّما برد لهيب جمرها أضافت أعوادا، بمردود أفعال ما تعوث، كانت تدير كلّ ما في نفسها بيد واحدة، كقطع الشطرنج تحرّك كلّ قطعة ما دهاها من مكر وفعل خبيث، فتدنو وتبعد، تنتشي في كلّ نصر يرضى هواها، تدلف تخسئ

ضعفهم وما آل إليه حالهم، فهي ضد زوجها معهم، وضدهم حين يدنو منها، تختصر المسافات تجوالا خبيثا، تضفي أبعادا لكلّ قول، تفضي الفتنة والحقد بينهم، جدار يفصل بينهم امتطته عنوة هدمت به صرح أسرة متكاملة، يقتل الأخ أخاه لبضع مساحة أرض صغيرة، ويتناسى بضع سنتمترات ضيّقة حملتهم تسعة أشهر، لم تحتملهم الأرض الواسعة شهران، هكذا ضاقت به الأرض بما رحبت، ولا سبيل إلّا أن يذهب ريح هذه الأفعى هكذا تواردت بخاطره الأفكار، فقدُ أخيه أرهق كلّ حواس جسده، وصمت زوجها وخضوعه يزيد فؤاده ألما، أمّه المسكينة لا تريد أن تكون سببا لشتات بيت ابنها فالقتيل والقاتل رضعا من نفس الثدي.

كان يضمر لها في نفسه السوء ليوقف هذا الدمار، قرر نهاية حياتها على يده دون تأخير ليطفئ احتراق نفسه انتقاما لأمّه وأخيه، حدد ساعة عودتها من السفر، وفي الليل سيكون قولا آخر، هكذا رتّب كلّ شيء وأعدّ عدته، تسبقه الأقدار لتخطف أمنيّة طال انتظاره لها، اصطدام سيارة بأخرى كان إسدال الستار على نهاية حياتها.

******

تقصي

تغدو فارغة النّفس قلقة الهواجس، ترتجل الاتّزان حين لا تجد ما يرضي فضولها، ترسل أنظارها كبرق خاطف يلتقط إشارات تشتم فيها بقايا حديث مهموس،
تقطع فجاج الصمت وتوغل أنفها في ما يخفى عنها، تثير الاستفزاز وتدور حول جملة مفيدة لتمسك طرف خيط رفيع تلاحق ما أفلت، تعيد تحليلها بتراكيب تنسج خيوطها تلك اللحظة، ثمّ تغادر تلاحق التقصي، تتنبأ بمكوّن نسويّ، تعقد جلسة قهوة، ثمّ تتوسط الجمع وتشرع في نميمتها بقولها:
اليوم سأخبركم عن سر وسيموت هنا
اليوم رأيت...، سمعت...،
فما يدور بخلدها يزحم تجاويف روحها، تبعثر جملا منقوصة تثير فضول من بطرفها خبر، تنصت وتخالف بعض القول تأكيدا لما أسلفت، تنقل ثمّ تعيد الصياغة بأهواء متقلبة، ترقب ما خلف العيون وتنسرق في هوس الحكايا والخفايا، تلوّن من الخيال رسوما ولقطات وتدخل شخوصها يحومون ما بين الظنّ والسب واللعن،
كانت تقتنص الأوقات، وتظلّ سارحة حتى أنصاف الليالي، حين يعود زوجها مهدود الجسد من عمله ليلا يسأل: هل يوجد شيء آكله؟

لا يجد ما يسدّ رمقه ولا من يؤنس رغبته، فيبيت يصارع بعضه، ما حملته لها يداه صباحا لوجباته مركون في جانب وقد تغيّر لونه ورائحته، فيسب ويسخط يوما جمعه بها تحت سقف واحد، كان كلّما وضع حزمة مال تسحب من منتصفها بضع وريقات حتى لا يأبه لذلك، وما تناولته من سلفها الراجل ظلّ حيطه، فحبّذت الاسترخاء بوسعه، كانت كمن ضاع منها شيء، تحوم باحثة تنقّب ما يجرح ويخدش ويصفع، لا تترك شاردة ولا واردة
إلّا ولمستها،
اغتابت جارتها ثمّ نقلت وأوصت وتوسطت وعقدت وأوصلتها لخلاف ترك أطفالها حيارى، ثمّ أفردت مساحة مدّت فيها زرع خبثها، فأوقعت بين أخيها وزوجته، ثم، استمالت قبضتها على أبيها تعاكسه وتشاكسه وتستند خلف أمّها، فيوقعانه في الصمت، يخلي الدار مواريا سواءته بين التبني والصمود، يتخطفها جارهم زوجة بعد انفصالها عن الأوّل، يتحلل الأب من تلك الوصمة، صار يلهب ظهرها ذلك السكّير صباحا ومساءً، تزوج عليها في الخفاء باتت تشرب علقما مستترا.

أمّ بديلة

كانت متعبة حد الإرهاق تشعر أنّ تحت جفنيها كوما من الرمل نعاسا، وفكيها يكادان ينخلعان من التثاؤب، أغلقت باب غرفتها وبدأت رويدا رويدا تغوص في إغفاءة ستجعلها بعد لحظات كميّت قديم متحلل الحواس والعصب من التعب… وحدث كلّ شيء فجأة طرقات هادئة متتابعة على باب الحجرة انتزعتها انتزاعا من فراشها إذ بها زوجة أبيها.

قالت: رافقيني للأسفل، تساؤلات وحيرة تعصف برأسها ماذا تريد منّي! وقد أنهيت كلّ أعمال التنظيف والغسل، مع نزولها لأسفل تلقّت الصدمة؛ اتّهمت بالسرقة كانت زوجة أبيها وأختها تتهمانها بسرقة قلادة وأمرتها أن تعيدها بحلول الصباح أو تشكوها لأبيها، عاد الكلّ لفراشه، المسكينة خرجت للشارع، الشوارع متشابهة والأزقّة تأخذ بها إلى دروب أخرى. وهي في دوامة إلى أين تولي وجهها؟ آذنت الشمس بالمغيب، وأوشك نور النّهار أن يودّعها، خرجت مسرعة من البيت بعد أن أسيء إليها، لم تعتد سماع تلك الكلمات الغاضبة المهينة وهي ابنة أبيها فقدت أمّها الحبيبة وارتأى أبوها أن يتّخذ لها أمًّا بديلة، مازالت طفلة وتحتاج إلى من يقف بجانبها معبّدا لها

الطرق ومسهلا عليها وعورة المسالك، خرجت مسرعة بعد أن أسمعوها تهمة بريئة منها، فمن يقف بجانبها مدافعا، ذائدا تلك الاتّهامات؟ وأبوها مريض. قد حذّرها الطبيب من إغضابه، وسرعة انفعاله، الظلام أوشك أن يهبط بكلّه وهي أرغمت على المغادرة لا تعرف إلى أين تذهب.

زقاق قصير فيه أربعة بيوت وفي بدايته مخبزة وأوّل بيت لونه أبيض، قد صبغ حديثا، وليس من المعقول ألّا تعرفه وقد زارت أهله مرات مع أبويها.

تسير في الشوارع العديدة شارع يمضي بها إلى آخر، وهي تريد أن تصل إلى مبتغاها قبل أفول الشمس، وتوديع أشعتها الذهبيّة.

- اذهبي من هنا لم يعد لك مكان بيننا هكذا أجابها عمها عندما قصدته، لم تكن تتوقع أنّ الأمور تصبح بهذا السوء، الجميع كان يرأف لحالها وقد تبدلوا، وأبوك مريض، ليس من السهل عليه أن يغضب، وهي حريصة على صحته هو الوحيد الباقي لها،

يؤلمها البرد الشديد وينهك أصابعها المتجمدة في هذه البرودة القاتلة بالظلم، أمّها توفيت، وأبوها يظنّ أنّها وجدت البديل عن الأمّ الراحلة وتحرص على تعليمها مهارة النّساء منذ نعومة أظافرها أنهك عظامها التعب.

وأتعبها المسير الطويل، تيبست عظام كفيها الصغيرة وتجمدت أصابعها الرقيقة أدركها الجوع ولم تعد قدماها

تتحملان الاستمرار،

نامت في الشارع لتنسى جوعها إذ تأتيها زوجة أبيها في الحلم أتتها غاضبة، تصفعها صفعات متتاليّة وهي تصرخ وتبكي في حلمها أتلفتِ الطقم الذي كان محل فخري واعتزازي.

تمسك صحنا آخر وترمي به بقوة على الأرض، وآخر ورابع، ومع كلّ صحن تتخبط البنت في حلمها ارتفعت الشمس فوق المدينة وتمّ الإعلان عن إيجاد جثة

بنت صغيرة.

******

بر الوالدين

استيقظت فجرا باكرا قبل أن يؤذن الأذان لصلاة الصبح بالرغم من أنّها لا تنام بالليل كثيرا، هي تعمل في حياكة الملابس حتى وقت متأخر من الليل، ومن خلال عملها الليليّ كانت تقوم بواجب أمّها التي فقدت البصر قبل خمس سنوات لتغطّيها وتلبّي واجباتها الليليّة، ووالدها الذي أصابه شلل بالأرجل فكانت تسنده على كتفها لقضاء حاجته وهو رجل عصبيّ المزاج غالبا ما ينتهزها أو يضربها على رأسها.

هي لا تستطيع حمله فجسمها نحيل، كانت تقول له حاضر يا أبي، كانت معظم الليل تقضيه في خدمتهم أو في الحياكة.

هي ليس لها إخوة بل لها أخت واحدة تزوّجت ورحلت مع زوجها بعيدا، كانت ترسل لها بعض المساعدات لخدمة والديها.

أبوهم لا يملك شيئا غير الصراخ طوال اليوم وهو في قناعة نفسه

لا يرتضي الوضع الذي هو فيه لذلك يصبّ جل غضبه على هذه المسكينة تفريغا لما في نفسه من عدم يقين وعدم قبول لما كتب عليه من الله، وهي صابرة محتسبة إرضاءً لله وبرا بوالديها لا تضيق ولا تحسّ بالتعب، هي في قرارة نفسها أنّ ما تقوم به مرفوض فيه الأعذار والأخطاء والإهمال هو أمر من الله فلا استهانة به، وكانت

تحبّهم جدا وتتمنى أن لا يفارقاها، هم سعادتها في الدنيا والآخرة وكانت دائما تقول:

هم سيرحلون عنّي يوما ما وسأفتقدهم لأنّهم لن يعيشوا معي كثيرا وليتني أموت قبلهم حتى أطمئن على نفسي من عقوقهم، فكلّما تعبت في خدمتهم أحسّ بالسّعادة ورضا الله وهذا ما يسعى إليه كلّ إنسان. فهذه فرصة وهبني إيّاها الله تدخلني الجنّة ببرهم فماذا أريد بعد هذا من الدنيا؟

هي جميلة جدا ولها طبائع إنسانيّة نبيلة وتكرم وتحترم أصدقاء والديها الذين يأتون لزيارتهم، لقد تقدّم لزواجها كثر ولكنّها كانت ترفض بشدّة فكانت لا تريد فراقهم، وتخاف أن تتغيّر الموازين بدخول زوج في حياتها؛ إن أهملته تخاف عقاب الله وضياع حقوق زوجها، وإن أطاعته وتركت والديها المصيبة الكبرى وستفقد سانحة لا تعوض بر والديها.

وفي إحدى الليالي نادتها أمّها وضمّتها إلى صدرها ثمّ بكت وقالت لها: عفوت عنك يابنيّتي، توفيت أمّها في تلك اللحظة وهي تحتضنها. وضعتها وبكت بكاءً شديدا وحزنت لفراقها لأنّها تحبّها.

دارت الأيّام وهي في هذه الحال بين خدمة والدها والحياكة،

وفي صباح يوم أتى شاب تظهر على ملامحه علامات التقوى، دخل وسلّم على والدها ثمّ عليها، كان أبوه صديق والدها منذ زمن بعيد وفرّقتهما الأيّام، وأرسله والده ليتفقد أحوال صديقه لأنّه أجريت له

عملية على ظهره وأصيب بالشلل، كذلك وقد زادت مدته على العشرين عاما، بعد أن سلّم وعرّف بنفسه لهم أخذه أبوها في حوار طويل عن أبيه وعلاقته به وذكرياتهم الجميلة، تحدّث له باستفاضة عمّا قامت به ابنته من واجب تجاهه هو وأمّها التي توفيت.

كان هو مشغولا بالنظر إليها وهي تغدو وتروح في ضيافته ملكت عقله وقلبه تماما، ودار حوار في رأسه: هي ما أبحث عنه، فتاة بهذه الصفات قلّ أن توجد فلا بد أن أخبر والدها الآن ولن أتردد، أنا أملك من المال ما يكفينا كلّنا وكانت تنقصني الزوجة الصالحة وهاهي أمام أعيني لن تضيع منّي هذه الفرصة.

أخبر والدها بهذا الموضوع فصاح والدها:

مبروك يا ولدي، كنت خائفا أن أموت وأتركها وحدها تصارع الحياة، كلّ المرات السابقة لخطوبتها ما كان يتحدث أبدا إلّا هذه المرة وكأنّه يحس بشيء قريب.

صاحت هي من الداخل بصوت عالي:

لا، لن أتزوج أنا لا أرغب في الزواج.

ناداها أبوها: يابنيتي أنا لم يتبقَ لي الكثير معك، فإن أطعتني فيما قلت فأنا راضٍ عنك في الدنيا والآخرة.

سالت دموعها بغزارة وقالت: لقد وافقت وأنا راضية بما قلت. صاح الشاب:

الله أكبر إذًا مبروك علينا، في تلك الأثناء كان أبوها قد فارق الحياة.

قلب أمّ

ها هي تتوسط مجمع عائلتها الجديدة، بوجه مشرق تتخلله تجاعيد على شكل أخاديد وكأنّ كلّ أخدود يكتنف قصة من الألم، وابتسامة علت شفتيها،إذا أمعنت النظر إليها أصبت بالحيرة فلا هي ابتسامة كاملة ولا هي عابسة تامة، وكأنّها تريد أن تبتسم لكن لكثرة الغبن في السنوات السابقة، جعل الأمور تختلط على شفتيها، وكيف لا وهي من ألفت حركة التقطيب في الماضي القريب، حتى أصبحت تلقّب في محفلها الجديد بين الموظفين بالعجوز العبوس، لكنّ اليوم على غير الأيّام العادية، فقد بلغ إلى علمها الخبر اليقين بأنّ ابنها الوحيد الذي أسكنها في دار العجزة إكراما لزوجته التي ضاقت بها ذرعا دون سبب، قد أنجب طفلا بعد سنوات من العقم.

نالت التبريكات والتهاني من الداني والقاصي، أمّا زميلاتها في غرفة السكن فقد كنّ الأشدّ فرحة والأكثر مساندة، حيث جمعن لها مبلغا ماليّا محترما لتشتري لحفيدها الهدايا كي لا تدخل منزل ابنها لتقديم التهنئة خالية الوفاض.

لحضتها تذكّرت العجوز وقائع ذلك اليوم وتبادر على مسمعها صوت زوجة ابنها وهي تقول له:

لك أن تختار يا أنا يا أمّك؟ واحدة منّا فقط من ستبقى في هذا

المنزل، إمّا أن تأخذها إلى دار المسنين أو أرحل عنك، وابحث بعد ذلك عمّن يخدمك.

لكن ما الذي أجج غضبك؟ ولماذا تضعينني في هذا الموقف الصعب؟

للمرة المليون سأقولها لك لن أفني زهرة شبابي في خدمة امرأة لا تصلح لشيء.

أخفضي صوتك حتى لا تسمع قبح قولك، فتلك المرأة هي أمّي التي وعدتني قبل زواجنا أن تعتبيرها أمّا ثانية.

لا حاجة لخفض صوتي هي تعلم كلّ شيء أخبرتك به. وقد جمعت كلّ أغراضها لكيّ ننتهي من هذا الكابوس ونعيش حياتنا.

دون أن ينبس ببنت شفة، عرج إلى غرفة أمّه، وجدها جالسة تمسك سباحتها بيدها، وتمرر عقيقها بين أصابعها بسرعة فائقة على غير عادتها، وقد أدركت أنّها بذلك إنّما تحاول أن تخفي ارتباكها ورعشتها، بيد أنّها سمعت حوارهما الذي جرى لوهلة وتتظاهر بأنّها لم تسمع شيئا رغبة منها أن تمرّ هاته العاصفة الهوجاء بردا وسلاما، غلق الباب، فخرج إلى الردهة وزوجته تلحقه صائحة: إذًا ماذا قررت؟

ببرودة دم وسكينة أجابها: لا أعلم... لا أعلم... دعيني وشأني الآن.

نظرت إليه حانقة: سأرحل إلى أهلي إذا أبقيتها معنا.

واستمرّ الليل في النزول بكلّه الدامس على الدار، التي ضمّت إليها جسد أمينة المنهك قد تكوّم في غرفتها...

ومع خيوط الفجر الأولى استيقظ الابن على صوت زوجته تصرخ في الأرجاء مطلقة ضحكاتها في كلّ البيت.

ماسبب هذا الضحك يا امرأة وصراخك الواصل لآخر الشارع؟

ذهبت أمّك وتركت رسالة أنّها غادرت أين أردناها.

دمعت عينه وسرعان ما أوقفته زوجته قائلة:

الشيء الوحيد الذي يجبر خاطرك هو أنّك لم تطردها وتمسكت بها إلى آخر رمق، لكن هي حرة اختارت طريقها التي بدت لها مناسبة، واختارت ما هو مناسب لابنها، ومن حقه أن يعيش مع زوجته.

أمينة رأت أنّ هذا قرار مناسب خوفا من أن تُخرب بيت ابنها الوحيد، وهاهي مثل أيّ قلب أمّ يغفر الزلات بسرعة، خبر واحد في دقائق معدودة أنساها سنوات من القنوط واليأس، تمنت في صميم قلبها أن يجمع المولود الجديد الشمل ويرأب الصدع.

غادرت دار العجزة متكئة على عكازها ومتأبطة هدايا كثيرة، قطعت عدة أزقة متمشيّة دون أن يدركها التعب، استغربت لحالها التي اعتادت الإعياء بمجرد صعود درجين أو ثلاثة، متسائلة في نفسها أيكون الفرح هو منبع هذه الطاقة العجيبة؟!! بعدها استقلّت سيارة الأجرة؟

وجهتك سيّدتي؟

حي بور سعيد.

وكعادة أي سائق سيارة أجرة يحاول دائما أن ينفّس عن زبونه بأحاديث جانبيّة، إذا ظهر له أنّه من النوع الاجتماعيّ في طبعه، أمّا إن بدا له العكس فإنّه يلوذ بالصمت، كروبوت يتأقلم مع طبع النّاس يسأل السؤال الأوّل إذا كان الجواب مقتضبا يدرك أنّ صاحبه من النوع الكتوم، أمّا إن كان الجواب مسترسلا فالحوار يكون أسهل دون عوائق أو حواجز وحتى المسافة تقصر، فغمغم:

تبدين يا حاجة سعيدة.

نعم يا ابني فقد رزقت بحفيد؟

فرحتك تدلّ على أنّها أوّل مرة تصبحين جدة؟

بالفعل.. ثمّ تدفقت في حديثها تحكي له عن شقائها وسعادتها بأدق التفاصيل كأنّه شخص من الأقارب لها معرفة سابقة به، حديث يجرّ حديثا حتى أوصلها إلى عنوانها، لمّا أرادت أن تؤدّي ثمن الفاتورة قال لها:

هي توصيلة بالمجان فقد تنسمت منك طيبة أمّي التي رحلت إلى دار البقاء، و الله لن آخذ منك دينارا واحدا.

دعت له من قلبها ثمّ ودّعته.

طرقت الباب ومشاعر الشوق لابنها وحفيدها تهزها هزا،

فوجئت بابنها يقف في وجهها ويصدّها مانعا إيّاها من الدخول إلى البيت.

ما الذي جاء بك وماذا تريدين؟

جئت أبارك لك بحفيدي؟

تهنئتك مقبولة، لكن هناك ضيوف مهمين في البيت، وستسببين إحراجا لي ولزوجتي، انظري إلى ثيابك، ماذا سيقول النّاس عنّي؟!!

بصوت كسته الدموع والحسرة قالت:

- غفر الله لك يا ابني أهناك أهم من أمّك التي حملتك، ربّتك وسهرت الليالي من أجلك؟!!!

-من فضلك كفاني من قولك المصبوغ بالعاطفة التي لو تركتها تتحكم بي لما وصلت إلى ما وصلت إليه.

-على الأقل هل يمكنك أن تأتي بحفيدي إلى هنا أسعد برؤيته.

أعذريني، غير ممكن.

حسنا... أعطه هذه الهدايا.

رمق تلك الثياب بازدراء ثمّ قال:

مستحيل أن أدخل هاته الملابس البالية إلى البيت، قد تسبب لابني الحساسيّة، المهم زوجتي تنادي عليّ الآن، إلى اللقاء ولا تكرري زيارتك مرة أخرى، إذا رغبت في رؤيتك فأنا أعلم مكانك،ثم أوصد الباب في وجهها.

اغرورقت عيناها بالدموع وولّت أدبارها تجرّ الخيبة، ضاقت بها الدنيا بما رحبت فسقطت أرضا مغشيا عليها، التفّ النّاس حولها وإذا بشخص

يخترق الصفوف وينادي من فضلكم أفسحوا المجال إنّها أمّي، وصل إليها فساعدها على استرجاع وعيها كاملا، فوجئت للمنظر الرهيب الذي أحاط بها، سرعان ما ابتسمت حينما رأت السائق الذي أوصلها، يشدّ على يديها بحرارة قائلا حمدا لله على سلامتك يا أمّي.

******

انفصال

تسربت الآخبار تنبئ عن خبر مشهود، طلب يدها شاب وحيد والديه بين سبع فتيات، فوالده سحقت سنينه ظروف الحياة، وجعلته كلوحة طينيّة غيّر ملامحها تساقط المطر الكثيف، فقد صمد أمام زمن بعثر كلّ طعم جمال وأزال أثر كلّ راحة، كان مكنونا بين أكوام عيون تنتظر، وأفواه جوعى تلتمس الطعام بين يديه التي اكتست جفافا مغفرا عملت حتى كلّت فتصحرت،

وكانت ليلة أن ألبسها دبلة الخطوبة سهرة ضمختها نسمات البهجة وجرفتها شلالات الفرحة، زغرودة شقّت أستار الليل، فطاب السمر، وتهللت الأنفس خيرا يزاورها يمنة ويسرى جلست كبدر أطل، تحتفل تزيين وزينة غادر البلاد اغترابا والأمل معقود على أن يخفف وطأة ما يعانيه أهل بيته وبين أن يتمم زواجه ويريح نفسه مع من أحبّ، كان سفره مباغتة استنزفت بقايا ما بيديْ أبيه وكلّ مدخر لملمته أطرافه، تلحقه استدانة تولاها أبيه أملا منتظر، ودعوات ودمعات تبعته حين رحل، لا يدري الأب حين سال الدمع من عينيه خوفا ورهبة من المجهول، أم الوضع المزري الذي سيغادر ويتركهم عليه، أم شفقة قلب الأب على وحيدِه.

إرهاصات زاحمت مخيلته وارتعاشات أضعفت يقينه، بأنّ الحياة تتلوّن حين نصبغ عليها فكرة خطأ فتصبح بألوان باهتة يصعب

النظر إليها، وتمضي الأيّام تتزحزح ثقالا، يرسل بعض النقود وأشياء لوالده مشيرا له بأن تأخذ خطيبته أكبر قدر ممّا أرسل، يجادله والده بالتمهل والصبر قليلا حتى سداد ما تركه على ظهره من ديون ثمّ يتفرغ لأمره الآخر، فسفره وضعه في موقف لا يحسد عليه، كان الابن متذمرا متناسيا ما أصابهم بعده ثمّ أمر بعدم مساس ما يرسل لها، فكان غضب والده واضحا، جعله يسرر لنفسه أنّ بعض النّاس تترك أثرا مؤلما من خطى يخطونها فتصبح نارا صعبة الاحتمال على الآخرين، ويجري الزمان فتزيد الفجوة بين الأب في ترتيب الواجب الأوّل وبين ابن سلك طريقا آخر سيجرّ عليهم نعمة أمر من حالهم، كان الابن يباعد ما بين مسافات ما يرسل لوالده وأهله بإمداد قشيف ثمّ يبالغ في الإسراف للخطيبة مالا متواصلا وأشياء تصل حتى باقي أسرتها ومن تبع لهم، احتدم الموقف وبلغت القلوب الحناجر ،فطارت عبارات يغلّفها الغيظ من والدته وأخواته لتظلّ سحابة سوداء على أسرة خطيبة الابن وأهلها، فيبدأ التراشق والتلويح والتلميح والغبن المتاح، وتنزل أمطار من اللغو الخبيث، تتوالد أحقاد وتبعث رسائل تحبكها الأقوال وتعود الردود سهاما قاتلة تدور رحي حرب ضروس، فالمال أمال والواجب أضحى مطعونا عنوة، والتملك كشّر عن أنياب لا تخطئ الهدف، عاد وتزوج في جوّ مشحون بالبغضاء من نسب هدم إرادة انتمائه، فانحاز وانفصل عن أسرته فباتت في قلوبهم حسرة.

صراع امرأة

وجه يكسوه التعب، وتحيطه الكآبة، سنوات عجاف من الهم والكمد، ألمّت بصاحبة هذا الوجه الجميل، وقضت على ما فيه من نضارة،أنت في دوامة، تفكرين في الخروج من الأزمة التي تكتوين بنارها، دهورا من المعاناة والألم، كثرت مصاعبك وتناسلت، وهو قد سافر بعيدا تاركا إياك، وحيدة كلّل السواد أيّامك وقضى على فرحتها، لمن تلجئين؟؟ ومن يمكنه أن يخفف عنك الألم والشعور القاسي بالظلم الذي يصحبك دائما!

لا سند يقف بجانبك، ليعينك، يمدّ لك يده مؤازرا، يسمعك كلمة تأييد، يتضامن مع آلامك، بابتسامة واثقة، تبدد ما ألمّ بك من ظلم، ويخفف ما حلّ بك من قهر، وما استبد من ظلام، ويمسح بيده الحانية على رأسك المتعب المحروم، فيشعرك بالرّاحة،

رحل هو مبتعدا عن هذا الخضم الهائل، وكنت تظننينه بلسما يشفي جراحك، مصاعب كلّ شهر تتكرر، ولا تجدين لها أملا للحل، طلبات عديدة عليك القيام بها، من واجبك تسديدها، وأنت لا تملكين إلّا راتبك الضئيل، الذي يتبخر بداية الشهر.

تفكّرين وتفكّرين في نهاية لأزمتك المستعصيّة، يبدو أنّ لا حل لها قريب، حلقة مفرغة تدورين بها، من يمكنه أن ينتشلك من هذا الألم؟؟

ويساعدك في التخفيف من جحيم الفاقة التي أحاطت بك...

لم تعتادي أن تمدي يدك لمخلوق، أنت أبيّة دائما، ولكن ما الذي يفيد هذا الكبرياء الشامخ؟؟ والإحساس الكبير بالكرامة، وأنت مغمورة بحرمان دائم، كلماته القليلة، تظلّ حافزا يحدو بك إلى الاحتفاظ بهذا السمو.

- عشرون ألف دولار، أضعها أمانة بين يديك، لتسليمها إلى ابنتي سعاد.

صراع دائم تكتوين بناره، أمور كثيرة يطلبونها منك، تعدينهم بالتنفيذ، لبيكم، سأمنحكم ما تريدون نهاية الشهر، أنت واثقة أنّه لا قدرة لك على الوفاء بوعودك، راتبك الضئيل يكاد يعجز عن تسديد الضروريات...

الحل بيدك...

لماذا أنت حائرة مترددة؟؟ والله قد أرسل لك من ينقذك من هذا الضنك.

- سعاد ستقيم عمليّة لها في العين اليمنى، بناءً على نصح الطبيب كلّ شهر تتكرر الطلبات، قوائم طويلة عليك تسديدها، مبلغ الإيجار، مبلغ للكهرباء، مبلغ للماء، مبلغ مأكولات، مبلغ مشروبات، أقساط مدارس الأولاد، ملابس، قوائم طويلة من نقود، من أين لك بها؟؟

تقفين عند هذا الحد، لا تملكين القدرة على إنهاء قراءة اللائحة، ابنتك تريد عيادة طبيب الأسنان، ابنك يرغب بالسفر مع الأصدقاء، كلّهم يسافرون يا أمّي.

وأنت من يقوم بالسهر على راحتك من عناء هذا التعب المتواصل الأليم؟؟ ولا أمل في شفاء قريب من العوز الأزلي الذي لازمك منذ أن عرفته وحلّ بدارك، هرب بجلده بعيدا، وتركك تعانين المصاعب جبالا ترهق نفسك، أأنت جبل سيّدتي؟؟؟ من يمكن أن يقف بجانبك؟؟ ويعينك على التخلص من الديون الثقيلة، وهذا القلق الكبير؟؟ أنت وحدك، هرب الآخر، تركك غريبة في هذا العالم، أولاد، ما زالوا صغارا، لم يعرفوا بعد طعم المعاناة، أن تعمل وتجتهد، وتكون عاجزا عن الوفاء بحاجات أسرتك.

- لا أثق إلّا بك، عشرون ألف دولار، حددها الطبيب لإجراء العملية

راتبك المتدني القليل، لا يسدّ متطلبات الأولاد، صاحب المنزل القفص الذي تقطنين، يأتيك في اليوم الأوّل، أقساط طويلة، عليك تسديدها.

- سعاد في رعايتك، بعد ستة شهور، تجرى لها العملية،

الديون تتراكم، أنت في صراع دائم، لم تعرفي الخيانة، طوال حياتك القاسية، التي شهدتها معه، أذاقك السم زعافا، وهرب بعيدا، أنت وحيدة تناضلين جيوشا هائلة من جنود الفقر، والفاقة، والترمل أولاد صغار، ما زالوا جاهلين مدى تعبك، من يعلمهم أنّك تعملين ساعات النّهار، والليل، لتوفير ما يحتاجون إليه من أشياء،

- عشرون ألف دولار تنقذ ابنتي من العمى، ولا أثق إلّا بك،

مبلغ سينقذك من الفاقة، يمنح أيّامك ابتسامتها الغائبة، يعيد الفرح المسلوب إلى نفوس أبنائك، فارقتهم البهجة، حين ولّى هاربا إلى مكان بعيد، وتركك تجابهين العالم.

-لم تعد الثقة تملأ النفوس كما كانت،

أنت في فاقة كبيرة، تعملين طوال النّهار، وجزءا من الليل، دون أن يبالي بك أحد، أولادك، لم يفهموا ما تعانينه من تعب ومشقة، المبلغ الذي بعثه الله لك يخفف عنك ضائقتك، الأيّام أمامك، اجتهدي، وجهزي المبلغ لإجراء العملية، احسبيه دينا عليك، وسدديه في الوقت المناسب.

الخيانة ليست من صفاتك، وقد عشت بمنأى عن الغدر، والسطو على حقوق الآخرين.

تعود الابتسامة إلى ثغرك، سيّدتي، أنت أهل للثقة، وسوف تظلّين أهلا.

★★★★★★

عقيم

غادر المنزل لا يلوي على شيء، لا يريد أن يسمع نحيبها، لا يريد لقلبه أن يرقّ لها

هذه المرة تجاوزت كلّ الحدود..

مضى مهرولا كأنّما يهرب من ظلّه. تسارعت خطاه، لا يريد للأصوات التي تئزّ في رأسه أن تسيطر عليه

إلى أين المفر؟؟

الطريق يمتدّ أمامه طويلا بلا نهاية.. يبدو له كذلك وهو يعرف أنّه ينتهي على عتبات البحر، البحر !! في مثل هذا الجوّ بعد أمطار اللّيلة الماضية ورعدها وبرقها؟؟ أيّ بحر سيكون؟؟

استولى عليه الفضول وشغل نفسه بالسؤال عن حالة البحر في مثل هذا اليوم. راقته الفكرة استحثّ خطاه.. منذ زمن لم يسر مثل هذه المسافة، السيّارة جعلته كسولا بات يفزع من أيّة مسافة ويركن إليها.. كثيرا ما ترجته أسماء أن يمشي قليلا ليضعَ حدّا للبطن الذي بدأ يتمدّد أمامه..

ذِكْرُها أعاده إلى ما جعله يغادر المنزل، حثّ خطاه ليجد البحر أمامه، لم يسبق له أن رأى البحر في ذلك الموقع جلس على حافة الجدار وراح يتأمّل هذا المشهد العجيب..

الأمواج العاتية تضرب أسفل الجدار ورمال البحر الفضيّة غابت ما من شاطئ، البحر كأنّه امتداد للنّهر رمال حمراء تحملها الأمواج معها وترتدّ بها لتتكسر على سفح الجدار شردت منه نفسه للحظات من هول ما رأى ثمّ تذكّر أنّه جاء يشكو البحر همّه فوجد البحر أكثر هموما منه.. زاده سواد أديمه وزبد أمواجه وخلوّ شاطئه وحشة وحزنا.. ولسان حاله يقول: "جيت يا بحر نشكيلك همّي نلقاك يا بحر مهموم أكثر منّي" ...

هزّ رأسه يريد أن ينفض ما بقي عالقا به من هواجس، ذلك الجدار الفاصل بين البحر والمدينة الغارقة في وحل ليلة ممطرة، لم يستطع تجاوزه فالبحر سبقه إليه، مشهد عجيب فعلا لا شيء فيه يشبه بحر مدينته الهادئ الصّافي.. لا شيء.. جاء يشكو البحر همّه فوجده يرغي ويزبد والزّبد يتطاير على ضفافه كالجمل الهائج تطفو الرّغوة على جانبيْ فمه.. لم يعهده بمثل ذلك الوجه العابس.

عاد إلى نفسه وهو يجلس على ذلك الجدار وفي مكان قفر،عاد إلى نقاشه مع أسماء التي ما فتئت تندب حظّها لأنّها لم تعرف طعم الأمومة بعد سبع سنوات مضيت علقما على زواجهما وهو يرفض أن يعود لزيارة الطّبيب مرّة أخرى، وقد استقرّ في نفسه أنّه قدر الله الذي لا رادّ لقضائه.. طالما حاولت أسماء أن تقنعه بوجوب ذلك وبأنّ العلم تطوّر وبأنّه لكلّ علّة دواء بإذن الله.. ولكنّه كان يرفض الإصغاء إليها

ويتهرّب من حصارها له،

كانت أسماء دائمة الشكوى لكريم خاصّة من أمّه التي تُلهب جَنَبَاتها بسياط أسئلتها… ما الأمر؟؟ ماذا قال الطّبيب؟؟ هل من جديد؟؟

وليت الأمر اقتصر عليها، فالجارات والقريبات والصّديقات وحتّى بعض أصدقائه الذين كثيرا ما سألوه أمامها: "متى يهلّ وليّ العهد؟" فيتغيّر لون وجهه ويلتفت إليها ليجد الدّموع تطفر إلى عينيها رغما عنها… لم يستطع كريم رغم حبّه لها أن يقنعها بالإقلاع عن التّفكير في الأمر… كثيرا ما أبدى رضاءه بحياته وبنسقها دون أن يضع في حسبانه الأولاد… أمّا أسماء فلم تستطع قبول ذلك… هي أمّ بالفطرة كثيرا ما هدهدت عروسها وألبستها وأطعمتها وغسلتها في صغرها وكثيرا ما اعتنت بأبناء أخواتها في شبابها حين كنّ يتركنهم في رعاية والدتها… كانت الأمّ الثّانية الحنونة الودودة وهم يكنّون لها كلّ الحبّ، حتّى أنّ الصغرى فيهم تناديها "ماما"

وقد بات ذلك يؤلمها بقدر ماكان يسعدها فيما مضى من الزّمن… لم يستطع إمساك نفسه اليوم وهي تتجرّأ عليه وتتّهمه هو بالعقم في نقاش دار بينهما حول طفل الأنبوب حين أبدى رفضه التّام للخوض في الموضوع…

لم يستطع تقبّل الأمر ورفع يده وصفعها… لم يفعل ذلك من قبل ولكنّها مسّته في أشدّ الأمور حساسيّة بالنسبة لرجل… لم يخطر بباله

أن يكون هو سبب خلوّ البيت من أبناء يملؤونه بهجة، كان مستقرا في ذهنه أنّها السبب وأنّه يحاول مراعاة مشاعرها حين لا يلقي بالا للأمر… ولكنّها كانت لحوحة لجوجة،

لا يمكن أن تضع أمرا في رأسها ولا تسعى لإتمامه مهما كلّفها من صحّة ومال… هي كذلك وتلك تركيبة شخصيّتها… حتّى أنّ أمّها كثيرا ما ندمت على اقتراح خرجة أو سهرة أو رحلة، فكانت أسماء تفعل المستحيل ليتمّ الأمر وقد تُقْلِقُ بذلك أمّها التي توصي نفسها بكتمان برنامجها دون جدوى.

كانت في الطّرف الآخر من الحيّ ترجّها العَبَرَات رجّا ولا تجد لإمساك دموعها سبيلا، لم تقبل فكرة أن يضربها رغم يقينها بفداحة ما قالته، لقد أجبرها على ذلك حين رفض الاقتناع بفكرة طفل الأنبوب… القشّة التي جعلها طبيبها تتعلّق بها حين عرف أنّ أسباب العقم ناجمة عن ضعف الحيوانات المنويّة عنده وهو مرض عادي يعاني منه الكثير من الرّجال ولكنّهم لا يعترفون بذلك ويصرّون على إلحاق العقم بالنّساء ومنهم من يطلّق الأولى والثّانية والثّالثة طلبا للولد ولكنّه يضطرّ لتقبّل الأمر حين تنقطع به السّبل.

هي لم تشأ جرح كبريائه ولا إحراجه فقط أرادت أن تشرح له واقع الأمر وأنّه هو المعني بالبحث عن الحلّ، ما دام هو سبب المشكل… ولكنّه بمنهجيّة الرّجل الشرقيّ لم يتقبّل التهمة… أن تخبره أنّه عقيم

نهاية الكون بالنسبة له... أن تكون هي عقيما لابأس سيتجاوز عن ذلك وسيرضى بقضاء الله وقدره... لكن أن يكون هو فهي الطامّة الكبرى وهو البلاء الذي لا يُحتمل...

كانت هذه الأفكار كلّها تدور برأسها وهي تجمع بعضا من ملابسها في حقيبة صغيرة وقد قرّرت ترك المنزل، دموعها تنهمر مدرارا لا تستطيع لها كبحا... طالما تحمّلت الهمز والغمز ولم تخبر أحدا أنّها قادرة على الإنجاب وأنّ العيب إن كان عيبا في زوجها. هي نفسها كانت تتألّم لذلك وتودّ لو أنّها السبب كي لا تتعلّق بأمل الأمومة ولو كان ضعيفا، أنهت ترتيب أشيائها، كتبت بضع كلمات رسالة له على الهاتف وأخذت حقيبتها وغادرت المنزل...

كان كريم مازال جالسا على حافّة الجدار العازل بين البرّ والبحر، كان يتأمّل المشهد الغريب وقلبه ينزف دما على حياته التي تخلخل أحد أسسها اليوم بصفعة منه يعلم أنّها لم تكن تصرّفا يليق به ولكنّ أعصابه أفلتت منه ولم يستطع السّيطرة عليها، آلمته كلماتها وهزّه اتّهامها رغم صدقه أوجعته كثيرا،

فردّ الوجع صفعة أوقعتها أرضا... لم يشأ أن يصل الأمر بينهما إلى ما وصل إليه، هو يحبّها

ولا يريد خسارتها لأيّ سبب حتّى لو كان انقطاع نسله... هو يحبّها هي لذاتها، لا يريد أن يشغلها عنه شيئا حتّى ولا أطفالهما، كان يستشعر

بينه وبين نفسه غيرة حين كان يراها تحنو على أبناء أخواتها أو أبناء أحد إخوته. يخشى بينه وبين نفسه أن يأتي من يأخذها منه.

ورغم حبّه الأنانيّ لم يكن ذلك هو السّبب في رفضه طفل الأنبوب، رغم ثقافته وتفتّحه ودراسته العليا التي خوّلته كي يكون أستاذا جامعيّا محاضرا في عدّة جامعات تونسيّة وحتّى عالميّة إلاّ أنّ ذلك لم يمنع أن يستشعر مساسا برجولته لو رضى بذلك، هو يعلم أنّ هناك من الأئمّة من حلّل الأمر حين يكون الأبوين نفسيْهما دون غيرهما... ولا يعنيه أن تكون التجربة باتت سارية في تونس وقد أحرزت عدّة عمليّات منها نجاحا باهرا، ولا يشغله أن يبقى دون وليّ عهد إن كان ذلك سيكون على حساب رجولته... أحسّ أنّها بكلماتها تلك هزّت عرش كرامته ومسّته في الصّميم.

كيف يمكن أن يكون مثله في قوّة جسده وعضلاته المفتولة التي دأب على تمرينها سنوات حتى بعد زواجه ولكنّ مشاغل العمل أخذته من قاعة الرّياضة كما أخذته من أشياء كثيرة جميلة في حياته.

لم يشعر بذلك إلاّ حين لاحظت له زوجته أنّ كرشه فعلا بدا واضحا وأنّه يجب أن يدأب على الأقلّ على رياضة المشي كي يتخلّص منه.

كانت كلّ فكرة تسلّمه لأخرى وهو هناك على ذلك الجدار يرقب هيجان البحر الذي أطفأ بعضا من هيجان نفسه.

ولم يخرجه من دوّامة الأفكار التي استحوذت عليه سوى رنّة هاتفه تعلمه أنّ رسالة وصلت، قرأ على هاتفه رسالة منها تخبره أنّها تركت المنزل.

اهتزّ لذلك وهو يغادر مكانه على حافّة ذلك الجدار الذي انكسرت عليه أمواج البحر مرارا وتكرارا وهو يشهد ذلك ويهلّل لكلّ انكسار لها... هل تفعلها حقّا؟؟ هل تغادر المنزل؟؟ لم تفعل ذلك من قبل لم تتركه حتى حين كانت تصل الأمور بينهما إلى ما لا يريدانه، كان يكتفي بالخروج وتركها تهدأ ليعود ويجدها قد نسيت نسبيّا وسرعان ما تعود إلى طبيعتها. أو كان يراضيها بهديّة أو بدعوة لعشاء خارج المنزل..

هذه المرّة لم يكن صراخا أو سوء تفاهم أو خلافا بسيطا، هذه المرّة هي أوجعته وهو آلمها... صفعها بما فيه من قوّة حتّى أوقعها أرضا، وغادر المنزل وهي لا تزال حيث هي تنتحب وكان صوت نحيبها يتناهى إلى مسمعه وهو يغادر المنزل...

أراد أن يبتعد كي لا يزداد الأمر سوءا بينهما، لا يريد أن يكون قاسيّا ولكنّها استفزّته، فتح باب المنزل وبحث عنها في كلّ مكان لم يجدها وجد الخزانة مفتوحة وانتبه لغياب بعض الثّياب...

لقد فعلتها حقّا... ما العمل؟؟ ماذا سيقول لصهره وكيف سيبرّر ما فعله؟؟ صهره رجل كريم طالما اعتبره ابنا له وهو الذي لم يرزق

بالذكور... خمس بنات كنّ كافيات كي لا تعيد زوجته التجربة مرّة أخرى... حين وضعتها أمّها وكانت أصغرهنّ مالت على زوجها وهي لا تزال بالمستشفى وطلبت منه عهدا ألّا يطلب منها طفلا آخر فهي لم تعد قادرة وصحّتها لم تعد تسعفها..

كانت ترجوه أن يعاهدها ودموعها تسبقها لتستعطفه، وقد رقّ لحالها ولبّى طلبها حامدا الله على كلّ حال ومكتفيا بما أنعم به عليه...

ألقى بنفسه على الأريكة وهو يشعر بألم في قدميه، نزع الحذاء وتمدّد يفكّر ويقدّر وقد عاد إليه هدوؤه بعد فورة غضب عصفت بأركان علاقته بزوجته... ما ذنبها هي كي تُحرم الأمومة؟؟ لماذا ثار وهاج

وماج والأمر حقيقة وهو العقيم وليست هي؟؟ ماذا لو كانت هي العقيم حقّا؟ هل كان سيقبل ذلك فعلا أم كان سينسى حبّه وشغفه بها أمام الإحساس الفعلي برجولته، التي تتبدّى في شكل أطفال يملؤون حياته بهجة؟؟ لماذا يجد حرجا كبيرا في إخبار أمّه بالحقيقة وهو يراها تهاجم زوجته أمامه وسمعها تشكوها وتحرّضه على طلاقها في غيابها؟؟ هل فعلا هو في غنى عن مشاعر الأبوّة الجميلة وعن الإحساس بالخلود على وجه الأرض في امتداد النّسل؟؟ ماذا لو اختارت أسماء الأولاد عنه وطلبت الطّلاق؟؟

قفز من مكانه كالملدوغ، طلاق؟؟!! أيّ طلاق؟؟!! لا يمكن أبدا هو يحبّها ولا يمكن أن يتخيّل حياته بعيدا عنها.. قام إلى مكتبه حيث احتفظ ببعض وصفات الدّواء الذي لم يكلّف نفسه عناء اقتنائه أو تناوله، بحث فيها عن رقم الطبيب اتّصل بالعيادة فردّ عليه صوت نسائيّ رقيق أن "تفضّل" ولم يفطن بنفسه إلاّ وهو يطلب منها تحديد موعد له لزيارة الطّبيب.. وضع الهاتف جانبا وارتدى حذاءه يروم مغادرة المنزل للّحاق بها كي ينثر بين يديها بريق أمل قد يتحقّق يوما ما...

★★★★★★

حبّ النّفس

لمْ تحب نفسها كفاية لتشعر أنّها تستحق أن تحِبّ وتحَبّ فتزوجت أوّل الطارقين ليجعل من حياتها جحيما على الأرض. ولم تنفصل عنه لأنّها لم تحب نفسها بالقدر الذي يجعلها تشعر
أنّها تستحق الأفضل.. لمْ تحب نفسها كفاية لتدرك أنّها إنسان ذو عقل وقلب وغاية عظيمة من وجوده، وأنّها ليست فتنة وعورة وجب إخفاؤها عن أعين المجتمع خشية الفضيحة.
لمْ تحب نفسها كفايّة لتثق بقدراتها وتسعى لإكمال دراستها وتحقيق ذاتها واستقلاليتها، فوجدت نفسها بعد سنوات شخصا لا تستطيع تقبله...
ألم تحب نفسها كفاية لتؤمن أنّ من حقها المضي قدما بعد كلّ فشل في محاولتها للتحرر من قيود المجتمع، فسمحت له أن يرسخ في ذهنها أنّها "أنثى" خلقت لتكون متعة مؤقتة في أيدي الرجل فقط..
لمْ تحب نفسها كفاية لتعلم أنّ من حقها أن تحلم وتطمح وتسير في طريق حلمها ولا تسمح لأحد بعرقلتها، فترة ركلت السّلاح في أوّل عقبة.. لم تحب نفسها كفاية لتشعر بحبّ من حولها فدمرت علاقاتها دون أن تشعر لتنتهي إلى وحدتها وعزلتها.. لم تحب نفسها كفاية لترفض وتقول "لا!" القوانين لا تؤمن بها فقط لأنّ المجتمع فرضها،

فانصاعت مكرهة ولم تبدِ أيّ رد فعل.. لم تحب نفسها كفاية لتدرك أنّ تحصيل المعرفة والثقافة أهم من إضاعة الوقت في تعلّم طبخات ووصفات جديدة، فأشبعت بطنها وظلّ عقلها جائعا.. لم تحب نفسها كفاية لتؤمن أنّ زوجها لا يعدو

كونه إضافة جميلة لحياتها السابقة فجعلته محور الكون وأهملت نفسها وألغت شخصيتها أمامه، لمْ تحب نفسها كفايّة لتثق بها فسمحت لكلام الآخرين وأحكامهم عنها بتشكيكها في ذاتها وإفقادها الرغبة في مخالطة النّاس، فاعتزلت الجميع وانفردت بنفسها...

★★★★★★

انتقام ناعم

الليل مظلم وموحش، الزقاق ملأته البرك المائيّة.. أفرطت في شرب القهوة لايمكنني الاسترخاء، صوت عقارب الساعة كان يزيد اضطرابي، قررت أن أنفض عنّي غطاء الأرق نهضت عن فراش الملل؛ دخلت تحت الماء الساخن علّي أدلل حواسي المتعبة قليلا.

بقيت تحت الماء ألتقط شهيقا من جهة، وزفيرا من جهة أخرى، وشيءٌ ما يسري في عروقي يخنق الخلايا خرجت بخفة، كأنّي ألقيت بثقلي كلّه مع الماء.

ضبابٌ حولي يغطّي المرايا.. لكنّ دقات قلبي مازالت تتزايد،

خرجت لغرفتي وانقشع الضباب أمام عيني

جففت شعري القصير المجعد... واخترت عطر الياسمين المميّز، علّه يقتحم وحدتي وغرابة الجوّ لكن لا شيء تغيّر وبقيت غارقة أتمعن في المهزلة التي تسمّى حياتي التي لم تكن منصفة أبدا،

قاطع تفكيري صوت جرس الباب توجهت صوبه لأفتحه

عزيز القلب المتزوج منذ عامين ياله من ممثل بارع استطاع أن يخدعني حياتي بأكملها، سأقتله... نعم سأقتله مثلما قتلني شهور ولم أخبره بشيء عمّا عرفته عشت معه وكأنّ شيئا لم يكن.

سألته: لماذا عدت باكرا اليوم! لم أكن أتوقع قدومك، لم أجهّز الطعام بعد.

قال: منذ متى وأنتِ تعلمين بخبر زواجي عليكِ

نظرت في عينيه نظرة هادئة باردة

قالت منذ أوّل يوم تزوجتها.

هو: مستحيل! ولماذا لم تثوري أو تنفعلي مثل باقي النّساء؟ لماذا لم تفتحي معي الموضوع؟

اتّكأت على ذكرياتها وهي تتنفس الصعداء

وارتسم على ثغرها... ذلك الجنح الكاذب

ابتسمت ابتسامة ساخرة

وقالت: أتغابى لأنّي أكره الكلام والحجج والنّقاش، النّساء غبيات يثرن، يغضبن، يتكلّمن كثيرا. يعتقدن أنّهن بهذا يستردن كرامتهن... المرأة الذكيّة هي التي إذا خسرت شيئا تحاول ألّا تخسر كلّ شيء وأنت تزوجت بأخرى وأنا ارتحت من تعنيفك لي، ليست هناك أدنى مشكلة طالما بقيت لي مصرفي أسحب منه الأموال التي أريدها في أيّ وقت.

هو: مصرفك! هكذا أنا بالنسبة لك.

هي: نعم لا شيء أكثر من كونك مصرفي الخاص.

هو: ولكن هناك من أتى ليقاسمك مصرفك الخاص.

هي: طالما أنا أحصل على ما أريد من الأموال لا يهمني من يأخذ بقيّة الأموال.

هو: تعلمين شيئا تعتقدين أنّ كلامك سيفرحني ويريحني لكنّه قتلني، لم أكن أتوقع أبدا أن أسمعه، تمنيت لو كنتِ امرأة غبيّة تثورين وتغضبين مثل باقي النّساء لأنّ زوجك تزوج بأخرى.

هي: عندما ترمى القلوب بسهام مسمومة تموت والقلوب الميتة لا تثور.

******

نقية لا تناسب قذارتك

في نسماتِ الهواءِ الباردِ، بزوغُ الشمسِ، تغريدُ العصافيرِ، تراقصُ الفراشاتِ في الشرفةِ،انبلاجُ الصباحِ الأبيضِ المُطرَّزِ بالوردِ الزاهي، تَزْبَدُ المياهُ متجهةً صوبَ الوادي بصوتٍ هادرٍ ،انتشارُ الرياحين، تساقُطُ الثِّمارِ اليانعةِ، شيوعُ الخُضْرَةِ شُيُوعَ السَّيْلِ، وتفَتُّحُ الورودِ مُنذِرًا بِدُنُوِّ الرَّبيعِ، حيث كان الطقسُ صحوًا

كنت جالسة في بستان جدي، جالسة أتذكّر حكايتي

لا أدري ما الذي دفعني لأعيد التفكير والنظر في مؤامرةٍ تمّت من قبلك ياعزيز القلب، لا أدري ما الذي غيّب عقلي لأتأمل في كم الحقد الهائل في قلبك لي من خلال عشرتي معك، وأنت تطعن ذات اليمين وذات الشمال موغلًا في إهاناتك التي ما أوقفها نزف حبّي الجارف إليك وحنيني لك فخنتني يا حبيب العمر وخانتني حساباتي فيك، ها أنا اليوم أهرب من الماضي لمكان بعيد أمقته منذ صغري فقط لأبتعد عن نظرات أهلي وترديدهم لتلك الكلمات اللذعة (أنتِ من اختاره)، ما ذنبي كي أدفع من عمري وكنت سترك الجميل وظلّك الحاني، لتكمل بقيّة ما رسمته وخططت له قبل الاقتران بك، وتعيش في آثام ماضيك، وأنا المغفلة عن رؤية كم الجفاء منك، ورؤيتي لك تقطعني عن من أحبّ، وتتمنع بمحبّة وحنانٍ ولو بسيطٍ منك، وتزرع

حقدك وكراهيتك في نفوسهم وقلوبهم لي، لتتمتع بسعادتك وغرورك وأنانيتك وحبّك للتسلط وأنت في نظر أقرب المقربين من حولك كنت منبوذًا ومن يخصك ولا تساوي في نظرهم غبار أحذيتهم الذي يمقتون أن يظلّ عالقًا بها

بينما الآن أتممت لك بيدي عمليّة جعل هذا الغبار جوهرًا في نظرهم، ولكن بلا اقتناع وخوفًا على شعوري، في سرهم كانوا يقولون: كم سذاجتي غبيّة وكم خامتي نقيّة لا تناسب قدارتك، لأنّهم بكلّ بساطة يعرفون طينتك.

كنت تأخذني لبيت أهلي وتمارس العهر على سرير زواجنا، أتذكّر هول صدمتي عندما جئت للمنزل فجأة مع أبي فقد اشتقت لبيتي، وكانت الصاعقة جعلتني في ذهول وهذيان فأضاءت بكلّ وضوح قذارتك بعد عشرةٍ امتدّت لعشرات السنين.

وتمّ أمر الله وتخلصت منك رغم حزني فيما اعتبرته خيرًا عميمًا لي..

رغم ذبول وردتي التي كنت أسقيها بماء حناني فما نفعها فظلّت في الذبول، ولم تكرّمني بمنظرها أو عبق أريج يفوح منها أبدا، الشيء الذي أسأله لنفسي هل يشرّفك اختراقي مستغلًا عشقي بطقوس خداعك أن تميت شمس أرضي، صدّقت في يومٍ ما أنّك كقدّيس في قدسيته وعفّته وطهارته ولم تكن سوى صورة عن قوم لوط وامرأته الغابرة...

كيف اقتحمت بعهرك أجواء سمواتي الطاهرة وظننتك كيوسف بعفته، وكنت فيك متيمًا… وفي هواك أعشى البصر والبصيرة، نعم وقعت في رجل

تآمر عليَّ لكيّ يقيني إطارا لصورته وعكازا لمبتغاه الآثم. يجعل من حياتي رقيقا كالعبيد! يبيع عشرتي متى شاء ويتركني بكلّ برودةٍ متى شاء ليتفلت وينطلق في قنص عبدة أخرى دون أن يدرك أنّ من يخدعه ويخونه هو إنسان، للأسف هدرت عمري وضاع معه هباءً وبينما هو في اعتبار ما صدر منه بحقي ذكاءً وبعرفه القذر شطارةً قاطع تفكري صوت جدي يقول جارنا الشاب من عشاء ليلة أمس يريد مقابلتك…

★★★★★★

زفاف لن يكتمل

في ليلة عرس تزيّنت وتجمّلت، لكنّها لم ترتدِ فستانها الأبيض، سرعان ما تراه مطرزا بالآهات وأثقلته الهموم على كتفيها، نظراتها حائرة من حاضر مطعون بالخوف والمجهول، وراء جفن تختبئ دموع حارة تأبّي السقوط!! على حافة العمر تنتظر أيّاما وعدتها بالسّعادة والسّرور، توقف العالم بأسره من حولها، كما توقفت أنفاسها بتملكها شيئا من الخوف والقلق، تختنق من كثرة الراوئح المتطايرة هنا وهناك؛ روائح العطور المختلطة بالطعام وجدت نفسها محاصرة بين جدران الغرفة يقابلها فستان زفافها تطيل النظر إليه لدقائق وتذرف قائلة: ألعنك سأمزقك نعم سأمزقك…

تعود إلى حالة الشرود بما يحدث في الخارج تحدّث نفسها:

الجميع يترقبون خروجي بطلّتي ورونقي، كطاووسة بيضاء متوجة على عرش الجمال تربعت وتلألأت لها نجوم السّماء تناثرت على فستانها لتشهد ليلة عرس.

يطرقون بابها بلهفة يقاطعون تفكيرها بالسؤال: هل أنت جاهزة الآن؟؟ لم تستجب لهم!!

أخذت تكتب كلّ ما يدور بداخلها: أيّ عرس تريدون لي أيّها البؤساء؟ ألم تروا على وجهى حزني وغياب فرحتي منذ سنين عجاف!!

كنت أبحث عن قوتّي بين ركام الأيّام، وجدران وحدتي المتهالكة فوق أرفف الأحزان

-تنصت إلى نزيف قلبها والعمر الذى مرّ مسرعا دون استئذان، فعلمت يقين العلم أنّها رسّخت فكرة الاستغناء بداخلها عمّا يقتحم عالمها الخاص بها، تضع قلمها على دفترها وتنظر من نافذة غرفتها تسمع أناسا يقولون أنّ العروس من أجمل فتيات حارتنا!! تبتسم ابتسامة ساخرة من قولهم، محدثة نفسها: هل أصبحت حديثهم اليوم وشغلهم الشاغل؟؟ يرتدون أغلى الثياب ورائحة عطورهم تملأ المكان هنا وهناك، وصوت إنذار سياراتهم يتعالى فرحا لاستعجال العروس بالمجيئ، الجميع قد حضروا في ميعادهم ولم يتأخروا برهة لكن ماذا عنّي أنا؟؟ هل حضرت سعادتي معهم؟؟ أم توارت في ليل كاحل يئنّ من غيابها عمر ضائع بين حيرة قلب ومتاهة روح.

- جلست تحتسي فنجان قهوتها الساخنة وارتدت معطفها القرمزي، لم تلتفت إليهم ثانية، لقد قررت لا يوجد شيء يحصل غصبا. تعطّرت بأريج صمودها وتكحلت عينيها بعزة وانسدل شعرها بكبرياء كليلها الدامس، لتسير في طريقها حاملة بقايا عمر في حقيبتها وقلم يسطّر حلما جديدا لم تجهضه الأيّام والهموم.

في عالمها الخَاصُ بِهَا، لَهَا أسرَارهَا المكنونة المختزنة بِدَاخِلها، كَوكَبُهَا الدُرّي، بِدَاخِلِهَا مَجَرةٌ وَشَمسٌ وَكَواكِب سُدَم وَنَيازِك وَأشهُب مُضِيئة تَعْكِسُ جَمَالَ مَا بِدَاخِلِهَا، بِدَاخِلِهَا أحَلام تتمنى أن تُدرِكَها، وَآمَالٌ تَودُّ أن تَبلُغَهَا.

مصير

تميل جانبها الأيمن، تتكئ على وسائد الشوق تداعب أناملها خصلة شعرها، تساقط شعرات بيض، تومض بعض ذكرى، تتسلل لحظات الزمان تشقّ عمق السنوات تمثّل بين يديها شواهدا تستوقف الأيّام مواضع بعيدة،

رقصت في إحدى لياليها فرحا هزّ جسدها البض، حين ودّعته بين دمعات وأسى ارتسم صباح ذلك اليوم، كانت تلوّح بيديها تغادرها آخر لحظات سعدها، هاجر وفي أحشائها مضغة، نمت وتكورت، تعدّ أيّام الفراق دهورا، عشرون عاما طمست طعم الأحلام وغورت جراحا لا تندمل، أمحلت الليالي وجففت في المأقى الدموع، عشرون عاما والمضغة صارت رجلا أفرط في تعاطي الوحدة إلّا مع أمّه الخالية من نبض الحياة، تصحبه نهارا وتغادره ليلا تصارع خيالات وأوهام، تطوي مسافات الطريق لترتشف خمر الهوى كاسات جفّ مدامها وانسكب على ثرى الأوجاع وحر البعاد

تتسلق جدار المستحيل، تلهو بتراتيل قديمة كأحاجي الأمسيات، تسترسل الذكرى وتبقى معلّقة الحضور، تشرق شمس صباح آخر يقترن بمساءات الضنى وعذابات وشجون، حين وصول نعشه تسابقت الدموع، تبكي الحياة لوجهها المكلوم والحزن القديم، نبض قلبها بعشق رجل آخر أنعش صوت وجدانها، توعدها ابنها بقتله.

أنفاس متقطعة

تسدّ رمق الرّوح بآهات تقطع أنفاس الزمان كآبة وسوء منقلب، الألم الرابض يوشي بفحيح صامت وندوب لا تندمل، تضجّ الدواخل صراعا يحتمي منه الفؤاد ويختبئ بين الضلوع منغلق السماع

اهتزاز وجدانها لعشقه أضرم نار وجد متلهف وليالٍ حالكات تصبغ وجه الآمال سوادا وتخفى معالم الأحلام، حين جالسته اقتبست روعة الحياة من سراب أحسّت بلمس أطرافه فأفلت متباعدا، عبارة تسللت من لسانه استأنست روحها، وبسطت براحات الهوى، وإن تهاوت عبر لطف الحديث

استقطبت أحرفا ومقاماتا ومنازلا ركنت في أقاصي القلب وانزوت تزرع في وادي الغرام حدائقا، تسقي من نبضها أزهارا كادت تثمر في خيالات التمني، فزارته الرّياح هشيما، بعد احتراق لم يزر وهي صمت في الحنايا وعويل، النضار الذي زان أختها الصغرى أحال هواه انزلاق مريع صمت من هوله الفؤاد فانكوى بوجد تدفق خلفه اللعاب وسالت حوله الرغبة، مدّ الوصل ترياقا يجيش بعنفوان الحبّ وهمس حنان أخّاذ، فأمال يسارا، التقت الميول بين تخطٍ وانجراف، ساق الذات من حبّ لحبّ مستبقا الأنانيّة في رهق أليم، وكان الاقتران، كانت بين انفطار الرّوح والفرح الأليم، من غمار الرّوح تستلب المسافات الحزينة وتستقي بعض حنين. فكان حراما وعذابا مقيما.

محطات عمر

صدفة أيقظت حنينا، حرّكت أشجانا، أسعرت الإحساس بعد أن خبّأ واندملت جروح قيحها الزمن، تركت بعض الندوب ذكرى على جدار الرّوح،اللحظات توجم وتموت المفردات ثكالى، تتناثر الأحرف تلملم بعضها في قنوط، تتثنى الشفاه لتتطبق على جملة يستند عليها اللسان، الشرود الماثل يثني الدواخل ويهزّ الأعصاب من أنقاض تداعت حولها الأيّام حطاما تناثر رمادا، إلّا العيون تمرّ خلالها هواجس تستدعي لقطات مسح عليها الدهر غبارا فتعززت الرؤى.

أقدار ساقت خطاها لتجده يتمايل طربا في حفل زفاف ممسكا بذراع زوجته، يصولان في باحة كثر سامروها اندماجا وانديادا، كانت تشكو لنفسها وتدعو وهي مصلوبة على جمر متقد ذلك الندل الجبان، قاد مصيري باكرا أعوام عديدة تركني عند أوّل محطة انتظار، في أوّل رحلة، لم يترك مساحة خالية أعبر عليها، أخذ منّي سنيني غير آبه لزمان الرحيل فهي بواكر عند خيوط الصباحات المشرقة ونواظر الأزمان،

غادرت كلّ القطارات لم أجد مكانا أقف عليه غير وهم الانتضار وظلام ألتمس فيه طريقا وعرا إن زلّت قدمي فمأواي السقوط وكسب الأحن،

وبين جسد تجعد وانضوت أخاديده تحتل أمكنة كثيرة حتى الفؤاد انطوى يحمل الآلام والمواجع، آه وآهات أن استبدل مكانه بمكاني لتعتصره نيران الغدر ويستنشق دخانها لهب حارق، كانت الحلقة تموج بما رحبت، وغبار الأرجل يعلوه الطرب وزغاريد تشقّ صمت الليل، شلالات العطر تجرف الأحبّة على شواطئ بعيدة يرتحلون على أنغام محلقة تغازل النّجوم وتطأ الثريا، إلّا هي ظلّت مثقلة الخواطر تقف على حواف الهوى، غادر الجميع فكانت آخر ملتفت، لم تجد إلّا بقايا علب السجائر وآثار معترك أقدام ومقاعد مبعثرة وصبح لم يمهلها قليلا تنفس قبل أن تلملم بقايا أطرافها.

وحدة مظلمة

الزمن حفر أخاديدا على وجهها..

مستقيمة ومنفرجة ومتعرجة كأيّام كالحة ذاقت فيها شدّة الألم وطالت أعلى مرارات الصبر..

وبعض شعر كساه المشيب تتوسطه ابتسامة جزلة تخفي ما أصاب الدهر من دمار فإخوتها الثمانية أمانة أثقلت كاهلها بعد أن غادر والداها الحياة وتركاها بين هذا الزخم المرهق.

ما كانت تؤل جهدا بالتضحيات الجسام حتى بحياتها..

فمن تقدّم لخطبتها لم ينل إلّا الرفض.. ما كان على كاهلها أعزّ من أن تنال نفسها بعض أمنيات.. فأكوام بشرية تحتاج مدادا ودعما في الحياة خصما على روح أمسكت بكبرياء زمام الحياة.. قد يحطّ القطار رحاله على آخر محطة ليستريح من وعثاء رحلة تقطّعت فيها سبل الرّاحة والاستقرار، فلا يهم إن تواصلت الحياة بما أرادت لإخوتها.. وتمتدّ الرحلة عبورا إلى أن يكبر الإخوة وتستقر الأحوال بانفراد كلّ أحد بأسرة خاصة.. وتصبح وحيدة جداريات صلبة إن ناطحتها كسرت كلّ نضال أقام امتدادات التضحية بتفانٍ ومن غير ثمن. وإن تخطتها أزالت معنى الصمود بين بقاء القيمة مكانها والانكسار أسفا على من لم يحس بمقامات الحس سندا صامتا... هكذا استكانت بكبرياء في

وحدة مظلمه أضاءت فيها سراج المسؤولية شموعا والواجب كاملا وتسليم الأمانة رايات أفنت فيها كلّ عمرها لتلقى ربّها، جسرا تخطو عليه أخوة بر الأمان. فوارى الجيران جسدها موكب حزين...

★★★★★★

دلال

كانا لا يفترقان، وهن في الصف الخامس يستذكرن بعض الدروس في بيت صديقتها (ساره) لأنّ أسرتها في ظرف مريح، (نور) تحبّ صديقتها وكذلك الأخرى، كن يتنقلن من هنا لهناك كفراشات الخريف، تحلّق فوق كلّ خضرة وترنو لجمال الحياة، فتضيف رونقا بألوانها الزاهية، تشكّل لوحات استثنائيّة، تستهل بشائر الرّبيع مزاهر ومناغم طروبه هكذا تتسارع الأيّام، تطوي صفحات وتفتح أخرى، كانت (نور) تقوم بكلّ عون لوالدتها حين انشغالها أو خروجها أحيانا، وتمتدّ يدها حتّى بيت صديقتها (ساره) تغسل بعض الأواني وتمسح ما اتّسخ داخل الغرف وتعين والدة صديقتها في طهي الطعام، ثمّ ترتب كلّ شيء بمهارة جعلت أمّ صديقتها كثيرة الميول والطمأنينة لما تفعل،

فاستكانت على ما تجد من ميزات في صديقة(ساره) كانت تخاف على ابنتها (ساره) الإرهاق والعنت فهي مازالت صغيرة بعينها تحتاج الرّاحة والرعاية

ولا تستطيع تحمل أعباء البيت، فتخاف عليها كثيرا وتحاول استغلال (نور) لراحتهما الاثنان معا، كانت (ساره) تحس ذلك لكنّ العبارات والحديث الذي تبثّه والدتها تدليلا لها قد أحبط همتها فأصابها الخمول والكسل، فهي لا تحتاج لشيء حتى كوب الماء تقدمه أمّها،

فكانت أميرة زمانها، تأمر حينا وتنهى حينا آخر، والحياة تمدّ لها كلّ الأيادي بلا استثناء، وتنطوي الأيّام خفافا فيصيران ورودا دنا قطافها، كان زواجهما حين غفلة من الزمان في ليلة لا تشبه الليالي، حين عمّ الفرح كلّ الأرجاء فضاقت الدنيا بما رحبت، صخب ملأ الليل أهازيجا، ولون الظلمة ابتهاج وشلالات عطور فاضت تغرق الحس نشوة هدهدت سكون الليل فتيقظ حتى الفجر، هنا رسمت معالم البعاد بينهما إشارات أدمعت عينيهما، طبعت كلّ واحدة قبلة على خد الأخرى ثمّ افترقا، كانت أقسى لحظات قسمت ظهر الفرحة الممدود، ويمرّ عام وحنين اللقيا يفطر قلبيهما، (نور) تجاوزت شهور الحمل الأولى ببضعة أيّام بينما(ساره) تباينت إخفاقاتها في مسار الحياة الجديد والتهبت تلك المودة اختلافا وجدالا لا ينتهي فأصبحت في جحيم ممل، وزوجها المصلوب بين زوجة لا تفقه عن أساس الحياة شيئا، وبين أهله وأصدقائه الذين أكثروا التلميح والنقد الصريح وضيوفه المهملين عنوة، فهي لا تفلح في تدبير شيء ولا طهي تفوح رائحته لتفتح أبواب الشهية وتغلق أبواب الجوع، فكانت دمية تتوشح إزار الجمال المفرغ وتعوث في الدنيا بلا وعي يرسى مكان مقصود، أغلقت منافذ التعديل وتوارت خلف مقام كان بعين أمّها سابقا، فما زالت تتشبث بتلك العبارات تنتظر زمانا أتى لتكون ربة أسرة، ضاق الحال بزوجها ولم يفلح في ترميم ما بعثرته أمّ زوجته فقرر الانفصال، وقد كان ألما وحسرة على أمّ آثرت أن تكون ابنتها صغيرة فكانت، صغيرة في أعين كلّ النّاس.

سطوة أب

كان الشوق يفيض من جوانحها أو تحلّق معه كفراشة في صباح باكر تقالد الزهيرات تلثم الرحيق والطل قطرات على تلك الورود كحبيبات لؤلؤ منثور ووشاح من فرح يلبث الحياة دثار الأمل والانشراح كانت تموج في دلال وروعة كعطر يحمله النّسيم لعاشق ينتظر لقيا الحبيب كانت تراودها لحظات الترقب والانتظار في إحساس يفتح منفذا لعدم الاستقرار فتمسح المسافات بين الغرفة وبوابة الخروج جيئة وذهابا وتدور ما بين ممرات الغرف دون شيء تريده جلست على أحد الكراسي تناولت ألبوم صورها الخاصة فتحت أوّل صورة نظرت إليها بتمعن سبحت في عيونه بحارا وبحارا ابتسمت وتنهدت بأنفاس تحمل المستقبل أحلاما وتلاقٍ دائم

أغلقت الألبوم فتحته مرة أخرى وضعت يدها على الصورة وقالت هل تراني؟ أغلقت الألبوم وغادرت. جلست بجوار أمّها وأخذت تمسح على رأسها وتعيد شعرها السادل إلى الخلف مرارا وتكرارا وقالت أخاف أن يرفض أبي قبول طلبه منّي فهو ابن خالتي ولم نفترق منذ أن كنّا صغارا دخل قلبي وملك روحي بكلّ أحاسيسها وهو كذلك ينزلني مكانا خاصا في قلبه وتعاهدنا ألّا نفترق أبدا

قالت الأمّ سيكون كلّ شيء على ما يرام فابن أختي إنسان مهذب

ووضعه المادي متيسر وهو يسعى في الحياة بكلّ جديّة
قالت البنت ألم تكن مواعيده اليوم هو وأهله لتحقيق الخطوبة؟ قالت الأمّ نعم ونحن جاهزون هيّئ نفسك لبداية الأفراح فأنتِ أوّل فرح لنا في الحياة فلا بد أن يكون مميّزا يتناقل حكاويه النّاس ويصبح نغمة على لسان كلّ شخص

هذا الحديث أثلج صدرها وجعل قلبها يفيض طمأنينة وآمالا في الخامسة مساءً سألت الأمّ ابنتها أين أبوك؟ قالت خرج، إلى أين؟ لا أدري سنبدأ التجهيزات من الآن لأنّ الضيوف سيحضرون بعد ساعة بدأت التحضيرات والترتيبات

قالت اتّصلي بأبي ليكون حاضرا قد نحتاجه في بعض الحاجات، حضر أبوها وأخبرته زوجته بأنّ أهل خطيب ابنته سيحضر أهله اليوم لتأكيد الخطوبة

صمت فترة وقال: أيّ خطوبة وأيّ خطيب؟، قالت: ابن أختي.

قال ليس لي بنت للزواج فابنتي قد طلب يدها منّي ابن عمها وتمّت موافقتي قبل عام ونصف، اندهشت الزوجة وقالت: لماذا لم تخبرنا؟

قال: لماذا أخبركم؟ فأنا ولي أمر ابنتي فلا مشورة لي مع أحد.

قالت: إنّ ابنتك وابن أختي على علاقة منذ الصغر وقد تمّ الاتّفاق في ما بينهم.

قال لا شأن لي بابن أختك أنا رجل وأنا ربطت لساني مع رجال لن أتناكص عن عهدي.

قالت: هذا ليس صحيحا لا في الدين ولا الأعراف هل سألت البنت هل هي موافقة أم لا؟، قال: لا أحتاج لسؤالها فهو ابن أخي وهي بنتي فهما الاثنان تحت قبضة يدي. فاحتدم النقاش إلى عنان السّماء وأصبح الموضوع ذا ميولين فالرّجل مع ابن أخيه والمرأة مع ابنتها وابن أختها.

كانت هي جالسة حزينة لما يحدث هل أصبح سببا في خراب البيت؟ وطلاق أمّي أم ماذا يحدث؟ هل يستجيب أبي لضغوطات أمّي وأتزوج من أحبّ؟ أم سأتزوج برجل لا أحبّه غصبا عنّي من قبل أبي، كانت تذرف دموعا غزيرة وانتابتها هواجس شتى كأنّها تسبح في بحر متلاطم الأمواج اعترته رياح هوجاء في ظلام دامس يسمعون طرقا بالباب تفتح الزوجة تدخل أختها وأسرتها ويجدون الرجل يرغي ويزيد وصياحه يعلو.

أجلستهم الزوجة وحكت لهم الأمر كاملا تعقلت أمّ وأخوات الخاطب قلن: فلنلغي هذا الموضوع نهائيا وليعد الحال كما كان عليه لا يمكن أن يكون هناك زواج في أنقاض أسرة تتحطم أمام أعيننا.

وقفت البنت وقالت: وتتركون حبّنا يضيع من بين أيدينا بكلمة أخطأ صاحبها فكانت خصما على حياة اثنين، إن تراجع أبي عن كلمته كانت

نقصانا من هيبته كرجل وأضيف إلى ضعاف الرجال المتحكم عليهم من نسائهم، وإن كان رأيه تزوجت رجلا لا ترضاه نفسي فأكون قد خدعته وخدعتهم وخدعت نفسي فلن أتحمل أن أعيش معه بجسد دون قلب يخفق، مالنا تعرقلنا بعض العادات قهرا وظلما وسلب حقوق وإرادة، قالت: أنا لا أريد الزّواج من هذا ولا ذاك فليهنأ أبي بكسر خاطري وعنوستي ولتصبر أمّي على ما أصابها، اصمتوا عن هذا الحديث ولا تتطرقوا له مرة أخرى.

وقد كان تصلب رأي والدها جعل الانكسار والتراجع أمرا صعبا بين الرجال فانقسم ظهرها إرضاءً لأراء النّاس دون الرجوع للثمن الذي سيدفع ومن الذي سيدفعه وتمرّ السنين وتتقطع الأرحام ما بين العناد والتزمت والارتجال والضديّة المقيتة...

تزوج خطيبها بأخرى وتزوج كذلك ابن عمها وضاع حبّها وضاع الأمل المنشود وضاعت أنضر سنين عمرها وضاعت الحياة وارتحل القطار وغادر

محطات ومحطات مخلفا الدخان وذرات الغبار تكحل العيون لتزيدها ضبابا...

على حين غِرة

بينما تنظر بوضوح من نافذتها...

ترى مساحات دون أفق ولا يوجد حد للمسافة.

لا شيء من شأنه أن يريح النّفس.

ليست جبانة ولكنّ الأحداث الأخيرة هزّت أعصابها.

يبدو لها كلّ اتجاه وكلّ الطرقات ضبابيّة وتبقى ضائعة في مكان ما محاصرة بوساوسها.

تتساءل: هل سنعيش الحياة التي كنّا نريدها ونتمناها؟

لديها شعور مسبق بأنّ الحظ سيحالفها أخيرا.

هذا ما عرفته أخيرا

تُرى هل سمعت جيّدا؟

أم أنّ ذلك من فعل العقل الباطن!

ما معنى ذلك؟

هل هي هلوسة عقل مكدود!!

وإلى متى تنظر إلى حلمها من غير طائل؟

أسئلة كثيرة لم تتمكن من تجاوزها.

مرّت لحظات وقفت مذهولة وأحسّت أنّ كلّ ذلك يحتاج إلى تفسير.

قررت الذهاب إليه وما إن خرجت حتى تنفست الصعداء وسرحت بأفكارها.

آن لها أن تنظر للأمور بتعقل وتنصت بعقل أيضا.

كانت تتكلّم بثبات واطمئنان كلام الواثق من نفسه ولم تظهر عليها علامات للتردد وكانت تنظر إليه تستطلع رأيه لما تقول.

لكنّه كان أكثر صلابة وأقل إقناعا خاصة بالنسبة لها.

أتقول حان الوقت لنضع النهاية لعلاقتنا؟

هذا يوضّح كلّ شيء.

ماذا يوضّح لكِ؟

ماذا تظنّ فكلامك واضح وضوح الشمس، ولكن معذرة إذا كنت تظنّ أنّي لا أفهمك.

انتظر بفارغ الصبر أن تنهي كلامها فهو كان مطمئنا تمام الاطمئنان لما يريد،

وأفاق فجأة من تأملاته أحسّ أنه تأخّر أكثر ممّا يجب.

أدهشها هدوؤه لما تقول

نهض واتّجه نحوها أمسك يدها وهو ينظر بعينيها بكلّ الحبّ والحنان

وقدّم لها خاتمه، تنظر إليه

ودموع الفرح لم تتمالك أن تسيطر عليها.

صدى صوت

مرّت ساعات صباحها كسولة كالنّعاس

انقلب عالمها رأسا على عقب ولا تعرف ماذا سينتظرها عقب هذا الموقف الصعب كم نزيف فكرها أصبح مؤلما مع كتاباتها وتحاول عبثا إدراك نوعية الآلام التي تطالها.

أسئلة كثيرة لا زالت تدور في رأسها..

ماذا ستخلّف وراءها، هل ستخلّف شيئا أم هو الفراغ الذي ستخلّفه.

تحاول أن تكتشف علّة هذا الضجر الذي يلازمها.

أخذت تمعن النظر إلى ضوء الغسق الذي أخذ يطغا لونه الأحمر القاتم على أفق حياتها وأخذ يبعث لديها الهدوء

والسكينة.

تتساءل هل ستبرح ذاتها ذات يوم؟ ثمّ احتواها الصمت بعد تساؤلها هذا.

أخذت تسودها مشاعر مهزوزة لا طعم لها وكلماتها تندفع متسارعة ومتداخلة مع بعض لم تعد تعرف ماذا تريد وما هذا الذي يسودها!!

هل ستبقى مغلوبة على أمرها أم ستحارب هذا الشعور.

أخذت تغوص الكلمات في ذاتها حد الاختناق..

هل هو الخوف أم الهروب من الواقع هذا ما ستحدده الأيّام.

وفجأة كسر السكون صدى صوت تعرفه نعم إنّه صوت أمّها وهي تناديها تهرول لرؤيتها تطلب الأمان والسّلام.

رأتها جالسة على كرسيها أمام النافذة كالمعتاد وتنظر إليها بكلّ الحبّ والحنان. أخذت تكلّمها بكلّ تلك الطلاسم والكلمات التي تدور في رأسها ولم تتوقف عن الكلام ووالدتها تنظر إليها بابتسامتها الهادئة إلى أن سكتت عندها نهضت والدتها وربتت على رأسها واختفت.

أخيرا أفاقت والدموع تملأ مآقيها لوفاة والدتها وتركها وحيدة.

★★★★★★

لحظة سعادة

أومأت إليه وهي تشير بكلتا يديها لطفلها كيّ تحمله.. بنظرة فرح ممزوجة بدمعة وداع.... ضمّته بين ذراعيها.... تنفست عبق عطره الطفولي وراحت تتأمل ملامحه...

وكأنّها أرادت أن تعيد النظر في كلّ تفاصيله كيّ ترسمه لوحة خالدة في تلك الذاكرة التي جرّدتها من كلّ شيء وهيّأتها لتنفرد بصورته بعد كلّ ذاك العمر الذي أمضته فوق مقاعد الانتظار وهي ترقب بارقة أمل تريحها من تلك الدمية التي استوطنت سريرها وقاسمتها وسادة نومها لسنين طوال

لا أدري كيف يمكن أن نستدعي الموت في لحظة ليهب لنا الحياة....

لا أدري كيف يمكن للرّوح أن تنصاع له بملء إرادتها وتنحني أمامه الجباه.. هل كان في نكهته ما يستوجب المغامرة.... هل يمكن في لحظة أن نتشبث بجسد يصارع كي يفنى وروح تتفلت من بين أيدينا ترغب بالصعود....

كانت تدرك تماما أنّ هذه الرّوح التي حملتها بين حنايا رحمها ستشاطرها ما تبقّى لها من أنفاس الحياة.. لكنّها اكتفت بأن تكون

هذه اللحظة التي وهبتها روحها لتكون أمّا بعد سنين عجاف هي نفس اللحظة التي ستكون امتدادا لحياة أخرى ستنير قبرها بشموع الفرح…

★★★★★★

مريضة انفصام

في صمت متأنق، امتقع مع الليل وسواده، وانقشع بريقا ونورا مجموعة سحب بيضاء تفترش السّماء معلنة هطول قطرات المطر اللؤلؤي…

دلفت إلى العمارة من بوابتها الحديديّة ذات السياج العالي، وفي كبرياء وتصنع، ضغطت على زر المصعد لتنزل به من حيث كان في الدور العاشر إلى الأرضي.

بعدها تملؤه بجسدها النحيل وتصعد به إلى العاشر مرة أخرى…

دائما ما تحبّ التكبّر بل تعشقه حتى في أدق أدق تفاصيلها… تصطنع تفاصيلا خرافيّة هشة ليست لها فائدة، لتجعل عقلها الباطن يؤمن بأنّها ذات قيمة في الحياة _ أو عند أحدهم على الأقل _

محاولة للتميّز والانفراد بفعل تافه كهذا… تقف أمام باب شقتها بنفس الكبرياء والزهو،

أميرة هي بل ملكة متجبرة حالمة تقف أمام مملكتها وعرشها، ومن وراء نظارتها السوداء التي تخفي جزءا كبيرا من ملامحها المتقدمة في العمر، تختفي تلك العينين، عينان خابيتان، مطفأتان

لكن أسفلهما يوجد أنف حاد عال، شبيه بمنقار الصقر …

شعرها الأحمر فيما مضى، اصطبغت خصلاته الآن بألوان الأسود والأبيض والرمادي، ألوان محايدة تحوّل المرأة إلى لوحة قديمة باهتة...

ها هي ذي تدير المفتاح ليصدر صوتا ضئيلا بعدها يفتح، تدخل وتغلق الباب وراءها... وما إن تطمئن أنّه عالمها الخاص المنغلق، تزيل عن كلّ ذرة من كيانها قناع التصنع والكبر، تسير بهدوء

وتلقائيّة شديدة نحو غرفتها...

تبدل ملابسها الأنيقة المتكلفة بأخرى مخصصة للجلوس في البيت، بينما تضعها على حامل الملابس يفوح منها أريج العطر ذو الرائحة النفاذة العطرة... تخلع مجوهراتها النفيسة، تنظر إلى ملامحها في المرآة بتمعن هذه المرة، لم تنظر إليها منذ عقود، يبدو أنّها لم تعد تتذكر جيّدا تلك الملامح، أو حتّى لم تتعرف عليها من البداية... تزيل عن وجهها كلّما نقشته من مساحيق تجميل أو ما تبقى منها على الأقل لتخفي آثار الزمن، التي بدأت تخطّ خطوطها على ملامح وجهها منذ حين، وعلى الرغم منها

و دون أن تدرك سببا مقنعا، ترقرقت على وجنتيها الدموع، وسالت بطيئة كالجليد الدامي، أو حتى الجمر اللاذع... هكذا هي نموذج أوّل يحتذي به للمريض النفسي... حالة مستعصيّة متقدمة من انفصام الشخصيّة، دائما يرى النقص في نفسه ويحاول فقط الظهور أفضل

من الكلّ حتى وإن كانت الحقيقة مغايرة تماما... تجفف دموعها الباردة، تدخل إلى المطبخ لتعدّ فنجانا ضخما من القهوة، وبداخل ذهنها سؤال شارد يطرح ذاته: كيف أنّ لذلك المسحوق السحريّ أسود اللون قويّ الرائحة أثر عميق على كليها وعلى كثيرين غيرها... جلست على الكرسي وراء المكتب ووضعت أمامها الفنجان قد تبخرت بداخلها كلّ رغبة في التكبر والفخر... فتحت أحد أدراجها، أخرجت قلما أزرق اللون، ومجموعة من الأوراق البيضاء الفارغة، حوالي خمس ورقات تقريبا، ثمّ... ثمّ بدأت تكتب بنهم... ولكن يا تري، إلى من تكتب؟!!

★★★★★★

فراق غير حقيقيّ

كان يرمق عيونها في شغف وهي شاخصة إلى السّماء وبجوارها طفلها حديث الولادة. وروحها تغادر الجسد المنهك ودمعات ألم تعلن الفراق الأبدي
كان الجوّ يحمل البرد والصقيع في وهاد ليل بهيم حالك
أخذ الزوج في رحيل روح بين طفله والزوجة التي كانت إشارات وداعها تتزاحم بوجهه فتغيب روحه لحظات لتعاوده في تنقل رسم خيوط الحزن والأسى
كانت يده تغوص بصدرها تتحسس نبض الحياة ثمّ يحمل دفء كفيه ليضع أرجل ويديْ الطفل بينهما ويضمّهما بقلب يتقطع ألما،
شارفت الساعة على فجر أسود قاتم والرّوح تذبل في حنايا الزوجة وصراخ الطفل يقطع أحشاء الليل
فيكرر تنقل يديه من صدرها وأطراف الطفل ليوصل حنانا ودفئا شارف على النّهايات الحزينة، أخذت أرجله ترتجف ولاتقوى الوقوف وارتعاش الأيدي أحبط ما بجسده من مقدرة، نفض كفيْه بقوة حمل الطفل وضعه على صدرها فأحسّ بارتحالها فاضت دموعه
أراد أن يضمّه لصدره. انفلت من بين يديه المرتعشتين

حاول المستحيل ألّا يلامس الأرض فموقد نار يشتعل جمرا تحته، لحظات وكان الطفل متوسطا الجمر لم يرَ شيئا كان يحمل في يديه الراجفتين قطعة كان يلفّه بها من البرد. فعلى صياحه بقوة وصراخ أيقظ زوجته من سباتها فصفعته على رأسه
نهض من سريره وأخذت تردد بسم الله قل بسم الله.
كان في شهيق وزفير متسارع وعيون تكاد تسقط على الأرض.
نظر إلى الطفل ونظر إليها، قال ألم أقل لك إن نمت فاعفني من العشاء؟

★★★★★★

الدمعة الأخيرة

لم تكن أمّي من هؤلاء النسوة التي تظهر دموعها كلّ حين، كانت غالبا ما تخفيها ولا تنساب منها

إلّا وقت الضرورة كلّما ألزمتها الظروف لذلك، وفي كلّ مرة لا تتوانى في إخفائها أمامنا كي لا تظهر الضعف التي جبلت عليه ولا تشعرنا بالخوف.

أذكر في تلك الليلة الغائرة التي أحسست أنّ ضوء القمر اختفى كما اختفت كلّ فوانيسه من السّماء التي كانت تؤنسني وقد طوّقتها الغيوم وحاصرتها من كلّ جانب، زارتني في المستشفى وأنا مستلقيّة على سريري خائرة القوى مهدودة القوام وبجانبي كرسيي المتحرك الذي أصبح يلازمني كصديقي الوفي الذي لا يتركني ولا أستغني عنه أو أستبدله في أيّ حال من الأحوال، دنت منّي مخاطبة…

أحسست بهزيز صوتها يظهر نوعا من الجديّة والحدة مع أنّني لمست فيه نوعا من الحزن… أوصتني بلهجة شديدة أن أهتم بنفسي وبصحتي وأن أربط عليها بالصبر والمجالدة كي أشفى بسرعة وأخبرتني حينها أنّها ستعود إلى البلدة، كانت مناسبة عيد الفطر على الأبواب، لم أظن أنّه سيأتي هذا اليوم وأنا لازلت ممدة على سرير المرض دونها ودون إخوتي ودون بيتنا الكبير، وأذكر أنّني حاولت استمالة قلبها عطفا بي كي ترجع على قرارها ولكن دون فائدة…

فقد قلت لها: لمَ لا تمددون الإجار وتبقون معي؟

فردّت بقوة زاجرة: لستِ صغيرة، أصبحت ناضجة ويمكنك أن تتولي أمورك لوحدك دوننا كما كنت تفعلين دائما… ماذا دهاكِ

وسكت اللقاء بيننا وباغت الصمت شفتين وتاهت عينانا واختزلت معها كلّ شيء… أحسست بعبراتها المختنقة على ممر أجفانها الذابلة قاومتها بكلّ شدّة ورحلت ورحل معها كلّ الابتسام الذي كان يخفف عنّي أحاسيسي بالغربة والجفاء ولازال كذلك حتّى جاءت وألقت وشاحها دون أن تلتفت، فأحسست لحظتها بأنني جسدا بلا روح، زهرا ذابلا فقد أريجه وأنصرف… شمسا باهتة في يوم احتلّت فيه الغيوم معظم السّماء وانتشى منه الدفء فأصبح أكثر برودة على جسد هزيل.

بعد الرحيل أخبرتني إحدى رفيقاتي بالمشفى قائلة: أمّك تحبّك كثيرا، أومأت لها مستغربة لمَ تقولين ذلك؟ أردفت قائلة: لأنّها مرّت عليّ وهي مغرورقة العينين توصيني بك خيرا، وكانت هي الوصية الأخيرة والدمعة الأخيرة قبل رحيلها للأبد،

لحظات الرحيل كانت كثيفة الفصول بالغة التوتر صاخبة الألحان لاتحس بأنّها ألحان منسجمة ولكنّها توحي بنوتات غريبة تعزف في وجل كما تفعل الطيور عادة عند الرحيل حينها أدركت أنّ الحياة مجموعة صور قد تتلاشى في أيّ وقت،

وقلت في نفسي *هل كلّ النّجوم يرشدوننا ليلا وفي الصباحات يرحلون؟*

زوجة أب

ترسمُ ابتسامة وبعض عِباراتِ التودد والألفة في إطار عريض، تتناوله بِطيبِ خاطر، تفرد مساحة كبيرة تبسط لهُ المهاد ووسائدَ الاندماج، وبأحرف جلية تطرحها بوجوه النّاس يقِينًا لا يُدانيه شك، فهي أمّه الثانية، رحلت والدته حينما كان يافعا، لم يكن له أشقّاء، فزواج والده بها جعله بين مجموعة من الإخوة، وَلج الحياة بكلّ دروبها حلا وتسفارا، وكدا واجتهادا مُعينا لوالده حينما كان إخوته صغارا،

إلى أن تفتّحت شواهد الأزمان فسعوا في مناكبها على سواعده وحراك طاقاته وحسن نواياه، قسوة والده تترك شتاتا في نفسه منذ اقترانه بزوجته الثانية، لم يتح له قبض مستقبل ولم يترك بصيص أمل يمشيه بل جرّد كلّ إسهامات أفضَت إنجاز كدحٍ، ثمّ يلحقه ببعض جرعات الإحباط المصطنعة سلبا كي لا يدنو من شيء فنتاج عمره أصبح ملكا لوالده وإخوته، كان خالٍ إلّا من آلام تفتح عذابا في روحه ووسواسا يعاقر مخيلته ليل نهار، فأيّ أب يشعل حياة ابن صلبه نارا تصلى ولا تزر، أصيبت نفسه، فلازمته نوبات يغيب عنه الوعي فترات طويلة ثمّ يصحو بين شقيْ الآهات وسريان العقاقير توقظ ما تلاشى من بين أصابعه، تتراقص الأحزان تختفي ألوان الحياة من دنياه فقط لون قاتم، ثمّ يغيب عن الحياة ويعود، هكذا غياب عقل قليل الحضور...

يقترن بزوجة حين يصحو، تصفو الحياة لحظات قليلة لتبدأ فصول مظلمة، الغرفة الضيّقة كانت مستقرة حاضر فيها الإذلال من كلّ جانب وكيل من الشتائم وإسقاط كلّ بهتان، ليغادر الدار مبتعدا بزوجته حتى لا يناله إرث من والده ويصبح كلّ حصاد حياته وحقه الشرعي ملكا لأولادها...

فكانت أفعى تلدغ من جحر عميق.

******

مطلّقة

تختنق عبراتها، تتناثر الدموع على وجنتيها كظل مزجت خيوط شمس الصباح ضوءه فانفلق يبهر كلّ حسن، يرقُبها كلّ حين، ويقتفي خطواتها حين تغادر البيت، يقف حازمًا في كلّ محاولة ابتعاد أو فعل مخفي، حين يحادثها تتّخذ الأرض ملاذا لعيونها يتثاقل رأسها فينحني بما تحمل من غلب ووهن، تقتفي أثر الصمت تلجُم مآثر الحوار، تختصر الردود بجملتين لا ونعم، فتحس أنّها تقطع أميالا عدوا وعلى عاتقها حمولة تزهق أنفاس روحها، عزلتها تفرض جوانب كثيرة من غيوم تغشى نهارات دنياها،

كان صديق في مجالستها لما يصطحبه من مسؤوليات تجاهها وتجاه باقي إخوته، فحين وفاة والده كانت طفلة يخاف عليها حتّى عيون النّاس لما رأى فيها من جمال عجيب، كبرت ومازال يحرُسها أمانة على عاتقه، في كلّ صباح تشرق جمالا يزيدُ مساحات قلقه، كان يحس نظرات الصبيّة ترقبها لتجد فرصة لاختراق ذلك السد الرقيب، فيقطع كلّ عشم يدنو لتلك الهالة، تمرّ السنوات تباعا، يحمل ذلك الأرق العصيب، يشوبه هوس الانتظار ليتوّجها أميرة تشرفه فخرا وتعجب سكنها، ويستريح من لقط الألسنة ومساس الكرامة دنس وتجريح، هكذا جاءته الفرصة، شاب أنيق التهذيب ميسر الحال، لم يتوانَ في

مطلبه، أقام الأفراح أيّاما بلياليها، كان كمن حطّت عن كاهله جبال، أودع أخته زوجها، واستراح تنسل من روحه مخاوف شغلت حيّزا من حياته، تنهد مبتسمًا يمازجه التوفيق والسّعادة في مآلات جهده... يدور الزمان أشهرا ثلاثا لتعود مطلّقة في حالة مخاض مستعجل.

★★★★★★

خواطر ممزقة

انكفاؤها على ذاتها أغلق منافذ ضروريّة، بين فجاج المودة ووشائج الرحم، تمدّ جسدها الماهل طولا دون أن تضع وسادة تتّكئ عليها، ففي ما ترى كلّ شيء ليس مهم، تسند خدها الأيسر بكفها المُهمل وتسرح في صراعاتها التي صاغتها بمعاول الوهم، تركن في ثنايا مخيلتها صور شخوص وما تحوي دائرة حياتها، فتلغي وتخفي في صمت، تغازل خيالات، ترتب تقييما أبترا، تلاحق أمنيات.

معاش الحياة بعيدة عن كلّ الجوانب الاجتماعيّة، وترتضي الانزواء، لا صديق ولا حبيب ولا قريب تدنيه مجالها وتسمح بانفراط سباحته عبر حياتها، وبعلها يهمل جوانبها قصدا، لما يرى من تطوراتها، تسقي بنيها تجاربا مريرة عاشتها، عفا عليها الزمن وهي تسند عضدها ألّا ينهزموا كما هي، وألّا تضع جهدها في واجب آخر أو غيره فاستنسختهم أرواح معقدة وحياة كئيبة ومسار مختلف الأطوار، فكانوا نسخة أخرى، فزائر الأمس صاحب مصلحة وقريب الرحم يستقصد الخسارة وحبيب اليوم طامع، هكذا اقتطعت شطر الحياة، وصارت تسبح في تصاوير تمليها تعقيدات النّفس وانجراف السلوك، فقبضت الوحدة، خوف توقعاتها مجازات مسبقة للتقدير، فكانت كماهي، مسيطرة الخواطر كسيرة الجناح، وبين أخريات أمِلينها الصمود بشفرة شفاهية متسعة الأماني، ومجهولة التقديرات، اتّخذت ذلك الصرح مسلكا وشرعت ذاك السبيل مسارا.

حبّ مخدوع

تدقّ طبول عشق خفي، على نعش أيّام رضّعتها ليالٍ سود، وتدور رحى طحين النّفس تنثرُ ذرّات أسى تلتقطها طيور الأحزان، تأثّر الليل نعيقا على مسام الظلمة تفردُ أجنحة الآسى فتنام سرابا، حين غرّدت الفرحة رسمت البهجة مفردات سقتها عصير الوجدان وبوح النّفس تكتُّما وحصونا مخبّأة، تداري وتداري ما امتلك الفؤاد زمانا، حين غادر كانت تنسج من إطارات الحياة دثارات المودة على بقايا الانتظار، يتمدد الزمن وتمتدُّ الأمال توثق قلبها أشواق التلاقي ونفحة العود الحنين، فتكاد تنقص من بقايا العمر تسرع في زمان الإياب، فإياب الأيّام هدّ قلاع الأشواق فباتت حائرة تهيم ما بين التسكع والخمول، ويعود، وهي طوع الحبّ في وله لانكسار المستحيل كسبا للمنال، يتزاحم الحِس نبضا، يتلاشى ما اختزنت من صبر أثقل متون الرّوح وأهدى أهداب العيون السهد اكتحالا، يعود ونيران الاشتياق تلهب صدرها جمر الأشواق، للُقيا ستكون بلا فراق، تمسح أيّاما خوالي وتطويها عوالم النسيان، كانت الصعقة أقوى من الاحتمال حين انهالت جموع النّاس تبارك الخطوبة لأختها التي تصغرها بضع سنين، فتراءت لها أشباح الظلام نهارا، أحسّت غدرا اقتحم كيانها من حبيب خلع كلّ جميل من حياتها وسرق آمالا وأمنيات اتّكأت على أرصفتها خمس سنين طوال، عدّت نجومها عدًّا وارتحلت على غياهب الليل

تسرج حنين الذكرى تنقش في جدار الصمت بحذر تُطوّق وعدا قُطع بينهما بألّا تذيع سر حبّهما، فلم تهمسه لأذن النّسيم، فأيّ عذاب يطاق احتمالا، خان عهده بأختها القريبة من نفسها، وأيّ ويل وصراع تنتظر، وأيّ نفق رماها فيه موثقة اليدين مقهورة القدرة والتلميح فتنتحب دمًا أسودا من أيّامها، حين تمدّ روحها تلملم بواقي قليل صبر ترتدّ فارغة، قد نفذ واستنفذت خلايا الرّوح والجسد، كانت تصارع الأيّام وهنا حين ليالي العرس وتتوه بين الحنق والحقد والغيرة تصرخ بصوت مبحوح يكاد لا يصل أذنها، وكانت الليلة المشهودة حضورا كبيرا، جلست العروس شمال العريس تحيطهم هالة من الفرح ولفيف من الفتية والفتيان كبستان أزهر عند أيّام الرّبيع، يرسمون اللحظة عقود تطوق جيد الفرح، يفرشون المكان بهجة وابتساما، تقف مصلوبة على حواف الأسى، تغرز مقلتيها ذلك المشهد حَسرات، تقبض قلبها بكفها حتى لا ينفجر بين حطام روحها، تنجلي الجموع وتفرغ الساحة، حين بزوغ الفجر تقف سيّارة فخمة يصعد العروسان ويغادران هذا المكان نوالا للمتعة والهدوء، تعود أدراجها تتراقص الهواجس أشباح في جدار الفضاء العريض، تنبعث من داخلها آهات متعثرة تتكسر وتختنق أحيانا، يخيّم الصمت الكئيب محيطا روحها فتختلي ساعات تزاور مواضي وأيّام عصيبة، في المساء تضطرب الحياة ويسود الذعر تتزاحم الأصقاع وتتصلب اللحظات، تتردد

الأخبار فتردها الأسماع بغير قناعة لا تصدّق ما سمعت من نباء، تساق الخطى من غير هدى والعقول تصاب بالذهول ماذا حدث؟ الكلّ لا يريد أن يتفوه بما لا يحتمل، حينما جلس والد العريس أرضا وبكى كانت أرجله لا تستطيع الوقوف، والنّاس يطرقون ويغرقون في أمواج الدهشة، ما تردد صداه الآن فاجعة شؤم وفاة العريس إثر حادث حين نجت العروس.

★★★★★★

عيون محجوبة

تجفف بكفها دمعات متساقطة، وفي القلب حسرة تبدي آسفا يكسو ملامحها، حين أحسّت بأنّ أمرا جللا سيزلزل أوقات الترقب، شهرت خطوط الحذر، ثمّ دنت تهمس في أذنها، قالت لمَ هذا الألم؟

فقد عهدتك أنموذجا مستلطفا ووضعتك بقلبي، أختك الكبرى لم تحيد ولم تجنح ببوادر الخيبة، كانت صون وحياء إلى أن استقرت زوجة بدارها، فثقتي بك فتحت بينك وبينه الحضور المتاح في أيّ مكان، كنت أهيئ لكما الدار وأهديكم فرص الأنس والسمر منفردين، فكان الجزاء عصيبا، أنزلتني منزلة الإخفاق وسوء الإدارة، لولا ارتباطكما الرسمي لما سمحت بلقائك به أبدا، ثمّ إنّ ميعاد الزواج دنا وسفاحك ينمو شيئا فشيئا، ما حيلتي في ذلك؟ فإمّا قاتلة أو محروقة بنار العقاب الاجتماعي أتحمّل أوزارك على عاتقي أجيالا متعاقبة، كان يترصدها القلق وتحيطها الحيرة، الوقت كان أضيق من احتمال، والحزن يهدم جدارات صبرها، قالت لها اخرجي واختاري معالجاتك فهذا شأنك، قالت الصبية أقسم لولا الحاجة لما أقدمت على هذه الخطوة، وما كان اعتقادي أن تصير انتفاخا، قالت اسكتي ولا تتعللي، إن لم تفتحي له مجالا ما نمت تلك المضغة المتمردة وما نلت من يديك الأسى، قالت ماذا أفعل يا أمّي؟ قالت لا أدري؟ ولا أدري إن علم

أبوك بذلك ماذا يحدث له من هذه الفاجعة، طرقت الباب جارتها التي تشهر لسانها طولا وعرضا وتشتم رائحة الخفايا من أماكن بعيدة، وقد وقع بأذنها بعض الحوار، أسرعت الصبية متخفية وتجمدت الأمّ مكانها، كانت الجارة تدير ما بدا لها إلى أوقعتها الاعتراف، تعاهدا رغم ما بين فكيها لا يأمن حتى نفسها، اتّفقت الجارة على أن تقوم بكلّ ما يلزم، لتكون الأمّ بعيدة دون رقابة أو شك، انطلقا ليلا، قصدا دارا لا ينقطع خطو أقدامها، سلّمت الجارة جسد الصبية لتلك المرأة المتجهمة بعد أن استلمت مبلغا ضخما، ظلّت الجارة تغدو وتروح بين الغرفة والشّارع، تململت من طول الانتظار، تمددت الساعات، انتصف الليل، لم ينتهِ ذلك الإجراء، ساورت الجارة هواجس وظنون، فوجه الصباح قد دنا، بعد أن رفع الأذان مناديا، أتت المرأة المتجهمة ثمّ قالت ادخلي واقعدي جوارها ريثما تفيق، مع بدايات انطلاق أشعة الشمس أفاقت مذهولة ممّا يترتب عليه حالها، غادرا منزل تلك المرأة، حين وصولهما.

الجارة رمى عليها زوجها طلاقا مغلظا وأمّ الصبيّة غادرت بيت أهلها حين رنت بطرفها ما تحمله نظرة زوجها.

★★★★★★

اغتصاب

ذلك الوجه المشؤوم يوحي لنفسها مواضٍ أليمة، العبارات التي سكنت فؤادها لا تنمحي، إيحاءات التقارب التي يرسمها لا تقي من تضارب يعصف بالذهن، الرفض كان الأولويّة، جذور الحاصل تعمقت وتمددت في فناء الرّوح مهلا، حين يبتعد يسكنها الهدوء، تسترخي على أهداب الرّاحة بتنهيدة تحس فيها أنّها تحمل قلبها على يديها، لوازم القلق تختفي بزوال صورته عن عينيها، يظلّ في فؤادها حريق يمور عقب كلّ وقت تسرح فيه خيالاتها، لنبشِ الصورة المنحوتة على سقف حياتها، أعوامها العشر لا يفصلن بتقديرات صحيحة بين ما كان وما يشرحُ طعم الدنيا، الاستغراب ونقض ما مثل لها يرتدّ في جدار العقل صدى يصمّ الآذان، والصمت سياط تنزل على نفسها ألما مبرحا، حين يجالس والديها مجلس أنس، تصطكّ أسنانها وترسل عينيها نظرات حنق قاتل، تصور لنفسها انتقاما مميتا على مسرح الخيال تربكها صيحة والداها لإحضار كوب شاي وماء بارد، ترتعش أوصالها وترتعد لتعيد ترتيب نفسها، تجرّ أذيالها قبل أن تكمل أحلام يقظتها، تلك صورة باهتة تريد تمثيلها داخل خلايا عقلها لتُشفي غلها وتؤكد نيل مجالها في الحياة دون سطوة من أحد، خواطرها الطفوليّة ضحكات تسع الفضاءات براءة، نوالها من الحياة براح تحلق فيه

تثنى تحت أضواء القمر وتغني في الليالي، ترسم الأحلام تنظمها كمسبحة تضيء الأمسيات وتألّق فيها الصباحات إشراقا ونشوة... هو شقيق والدها الأصغر يحملها بين يديه من سنينها الأولى، يلاعبها في أحضانه يحملها على ظهره، يدور بها بين فناء الدار يملأ يديها بأنواع الحلوى، وهي تلهو على صدره في حبور تتسلق حتى شعر رأسه، سقط كلّ شيء من نظرها حتى القناع المبتذل، والأمان المتاح أصبح معنى أجوف وشعار مزّق أستار صلبه، تباعدت عن كلّ متعلقات الحياة وركنت قصيا، لاحقتها هواجس رسمت خطوطا حمراءً أفسدت وقطعت رحم إخوانها حين يحملون طفلتها بين أيديهم تستنكر ويحمرّ وجهها.

******

محرّم

تبكي عندما تصيح بوجهها أمّها وتسيل دموعها مِدرارا، كانت تختزن ما تثيره الأيّام في لفافات تطويها وتضعها جانبا، كأنّها تدّخرها لتدخنها زمنا أتى.

تحذير أمّها المتكرر من أطراف أهل زوجها يدفع شهية خصبة للشكوك، تمليها اللحظة، كانت كثيرة الحذر، تخفي عينيها حين يرنو إليها شقيقُ زوجها بطرف مُشتعل، تداري نفسها.

يمدّ لها ما بعث زوجها من مال، ففي اغترابه توالت سنوات تولّى حراستها ليلا، كانت تغلق أبوابها هي وطفلها الوحيد، فينام في فناء الدار، كان يغدو جيئة وذهابا حراكا مريبا تخفي في حناياها صوت زفراتها، لتلهمه ألّا حياة داخل الدار لكبح شهوته المجنونة، تتداركها أطياف شتى، تراودها الغريزة أحيانا، فتعود تلملم حياءها وتستقيم، تغلق عليه كلّ الفرص، يطلق عنان المراودة، يعطيها انقيادات تسلك أمنياتها، يستميلها ويهرب، من تلقاء نفسه، يحاصرها برغبة الامتناع، تعاقبت الأيّام بين التشهي والحرمان، والخوف والقلق، امتدّت سنة أخرى فوق استحالات كثيرة، وظلال الاغتراب تطوي عجاف السنوات، طالتها منه ابتسامة بعثرت فضاءاتها، وأيقظت سواكن عواطفها، باشرته الود، احتواها حنين دافق، استنطقت خلالها لياليها

الأولى، روت ظمأها، حاصرتها نظرات الشك.

أمسك قبضتها الشرطي، حين عراك دار بينه وشقيقها ممّا فاح، طالهما القانون المشروط لآن مؤقت، أخرجتها من أحشائها من ظلام وظلمات تشعّ بياضا كسحنته، تناوبت عليها العاملات ليأخذنها تبنيا غطّتها بخرقة بعد أن حدّقت بوجهها وقتا طويل، سارت خلف الشرطي تتبعها أمّها وعلى كتفها تحمل عبئا ثقيلا.

★★★★★★

عروس في عقدها الرابع

بدموع الفرحة رفرفت محلّقة ترافق النسمات زغردت الخواطر وتراقصت أطياف الدهشة، تبعثر البسمات بين شواطئ موردة الضفاف، اسّترخت ترقبُ الأوان، تدفع الساعات دفعا، تغزلُ للسّعادة ملفحا تدثّر به أيّام قادمات، فقد أبرحتها سنين وأدّت بين طياتها عذابات ووحدة، تهافت الأزواج يتخاطفون أخواتها الأصغر الخمس واحدة تلو الأخرى، إلّا هي، ظلّت كشواهد القبور كلّما مرّ بها أحد أتبعها الدعوات، لم يطرق سبل قلبها أحد إلّا ذلك الرجل النحيف الثري، أراد أن يسترخي بين حبال صبرها ووسائدها الممدة الضفاف.

زوجته الأولى تراخت أهدابُها وذهب سمعها فتفاصيل الزمن أخذت كلّ شيء جوارها، بعد أن أفرخت أربعة صبية، تماثلوا بين عاقٍ وجاهل، اقتصّ لها مكانا فسيحا بداره الشاسعة أحست بسعد الأيّام، أناخت رواحلها ذوبا، في حياة كانت تنال لقطها حكايا بين نساء الحي، ومن خلال أنس أخواتها الخمس وغنجهن، كيف يتهيأن ليلا ويتسلقن عناقا يُسلّين أرواحهن بين مزج مستلذّ ورقاع الفتنة تدنو المستباح عنوة، رفدت الأيّام سفرا جميل وجوانبا استظلت رُباها سنوات قليلة، التصاق أبناء زوجها ناحيتها ومزاورتها بين الحين والآخر ترك بين جوانحها شيئا من الريبة، صبية عُتاة يتسابقون بين الفينة والأخرى

يتمددون بفناء مسكنها، يشرعون بمغازلتها كلّما وجدوا متسعا دون رقابة، يسترقون غيابه ويداهمونها، راودها أحدهم نهارا، استشاطت غضبا، كالتهُ سبابا ولعنا، هددته أن تخبر والده بما أسرّ، التفت ضاحكًا، قال هل تعتقدين يستوعب ذلك؟ سيصفك بالمجنونة، سنقول له أنّ زوجتك لعوب ولتبرير فعلها تحاول اتّهامنا.

كان صدى كلماته يتردد كلّ حين، قالت بعد أن منّ الله عليّ بدار تمهلت بساحتها العود كما كنت

سابقا؟ استنبض العطف والشفقة ممّن حولي؟ أُلاعب ما تنجب أخواتي الصغار؟ أم أدفن ما حصل ويحصل لاحقا؟ ليس هناك خيار أمثل أستند عليه، تأوّهت بغبن وتوارت خلف صمتها، كانت الأيّام حبلى بخيالات يكتنفها الغموض، ما عاد الصمت معين صبر ولا الأحمال ساهلة الوصول، كانت تدير مغالبة الحياة وتمسك ما بجوفها خوفا من أمور لا تدرك لها مآلا، ذات ليلة طرأ ترحال لوالدهم، أخبرهم بحراسة زوجته الجديدة، تسابقوا مهرولين، كلّ يحمل بكفه خبث نفسه ومكره، حين ولوجهم دارها داهَمتها الهواجس والخوف من ليلة تبدو ملامح ظلماتها باكرا، بدأ يساورها القلق وعدم الاستقرار، ظلّت تتنقل من هنا لهناك، تناولت سكينا أخفتها بين ثنايا ثوبها، وانتظار المجهول يحرق فؤادها؟، دارت أسئلة عدة برأسها ماذا يحدث في ظل هذه الأزمة الخرصاء؟ لا شك أنّ ما يضمرون خطير،

كيف الخلاص والخروج من هذا المأزق؟ يدور خلاف بينهم ويصطرع الجميع ضربا وتنكيلا، كانت تراقبُ الأحداث من خلال نافذة بجسد مرتجف، ترى قطرات الدم تسيل على وجه من راودها، تفرد ثناياها ابتساما وكأنّها تشفي غل ما أحدث في نفسها، يحتدم العراك يسقط الجميع إلّا مُراودها بوجهه الأغبر الملطخّ بالدماء، يترنحُ بخطواته المتثاقلة تجاهها، كانت كلّما خطا خطوة نحوها أتبعتها خطوتين إلى الخلف،

تلاشى مجال خطواتها واصطدم جانبها بالجدار، مدّت يدها تتحسس تلك السكين المخبأة بجسدها، لم تكن موجودة، فقد سقطت حين رجع خطوها، فلا مجال لإمساكها مرة أخرى، فقد كانت أقرب ليده، تلك اللحظة جنّ جنونها، لم يتبقَ غير خطوتين وتسقط هي بين يديه، طرق الباب شتتّ أنباههُ، حاول أن يتراجع مسرعا، تعثّرت قدمه اليمنى فخرّ أرضا، الطارق لم يستطع صبرا تسلّق الجدار، وجد ابنه على الأرض والسكين قرب يده، وزوجته منكمشة ملتصقة بالجدار، رأى باقي أبنائه طريحي الثرى، طاح مغشيا عليه، لم تكن سوى لحظات فارق زوجها الحياة، فنالت ميراثا ثقيلا.

★★★★★★

صراط متأرجح

تلك السنوات تسارعت وطوت في جوفها صفحاتا وأحداثا، جرت وأدارت سواكن ما خبّأت من صمت سدّت نوافذ وشائج الأرحام، فانكفأت تداري مظالما مزدوجة الألم ساهم المجتمع والعرف الأعمى في تنفيذ أحكامها، لحقتها سياط ألهبت روحها، لم يكن الغبن جليا للنّاس، العيب الرافع عصاه دوما يكمم فمها، وأخواتها الخمس، غير المطلقة والأرملة التي تغسلها دموع همومها، وجع السنين أرهف كفيها المشققتين من كثرة نظافة ملابس أهل الحي لتسد رمق أطفالها الصغار، تدور بين البيوت تشقى وتكدح تملي نفسها بأماني بين أيدي هؤلاء الصغار يوما ما سيتفتت هذا الجسد وتخور قواه فستستمسك على ظهورهم كمقاود في أخريات أيّامها فإن لم يكن البناء متينا ستنهار الجدار وينكشف ستر نفسها، هي ترى كلّ ذلك وتسير على صراط متأرجح، فما انقطع إحساسها يوما بأخواتها، دواخلها تنفث دخانا يزحم مساحات الحياة في ساعات يومها، والملك (هكذا كان يناديه أبوه عندما كان صغيرا إلى أن رحل) يقنطر الأموال، يجلس عليها وينظر من أعلى، مولده بين سبعة إناث أحاطه بهالة جعلت نوره يبهر وجه والديه، واسم تناوب خلود مقترن عبر الأزمان، نهاية مأتم أبيه تحلّق حوله ثلة من أقاربه لإسكات أفواه أخواته وحجب

رؤى الحقيقة وسحب كلّ الورث ليصبّ عنده.
أسهبوا في ما يكسر المشاعر ويدغدغ الفؤاد آلم، ثمّ نصّبوه أبا ووريثا لكلّ شيء بعد ضغوط أجبرتهن على رفع أيديهن خالية الوفاض، وهبن له كلّ حق ظاهرا، خوفا وسترا كي لا تثير الألسن والأقاويل وتحشر الأنوف بين الفقد المؤلم والجور المستباح، المخفي في الصدور المستحسن بين الكبار، القابض قسرا حقوقا بعبارات معسولة ملونة ترقّ لها القلوب فتنكسر طائعة في تلك اللحظة، فتقبض السراب بعد حين، ابتعد واختبأ ببرجه العاجي عاش بين رغد مترف، استظلّ سحابات آسية وافترش ظلمات أخواته السبعة، لحقه الموت عاجلا، غاب واقتسمن.

★★★★★★

طالبة جامعيّة

حملت حقيبة السفر على يدها اليمنى وباليد اليسرى منديل تجفف به دموع الفراق الأوّل في حياتها لم تسعفها الظروف لسفر كهذا كانت أمّها تسير خلفها وجزء من ثوبها الذي ترتديه يتدلّى على الأرض من غير اهتمام له لأنّ ما يهمها الآن أكبر وأهم وهي تدعو لها بالنّجاح والتوفيق وتتمّ بكلمات مبهمة كأنّها تستنجد بشيخها.
إخوانها الصغار كانوا في وداعها وهم مكسورو الخاطر لفراقها، فكانت أخّتها تسألها:
ماشية تقراي فالجامعة؟ هي وين؟
ولا من مجيب لسؤالها، كانت شاردة الذهن تنتابها أحاسيس بالخوف ينبض قلبها بشدّة وتتثاقل خطواتها من العالم الجديد، أتى الأب يهرول ليلحقها الرسوم والمصروف للجامعة لقد باع حماره الذي يركب عليه ثمّ عنزة اللبن التي يشربون بها شاي الصباح ثمّ استدان جزءًا من المال من تاجر بجوارهم هكذا تجرّد البيت في نكران ذات رهيب أملا وتطلعًا لمستقبل قد يأتي عليهم بالخير والبشرى، لقد حمّلوها أمانة لو تدري لانكبّت بوجهها على العلوم أكثر من الأكل والشرب ولقاطعت جميع الموضات ولحرّمت على نفسها كلّ أنواع الكريمات وتمسحت بالماء طهورا طيّبا، ركبت الحافلة وجلست على المقعد

انسكبت دموعها بغزارة كان الأب والأمّ وإخوانها ينظرون إليها في تحسر كأنّها أخذت منهم عنوة جلس الأب على الأرض ووضع يديه على رأسه وبكى على ماذا؟ لا يدري لأنّ ما يدور بخلده كثير ومرعب فالجامعات أصبحت مرتعا لكلّ قبيح كما يسمع من بعض النّاس وهو يخاف عليها هل تستطيع الصمود لمجابة هذا العالم المركب الخطير؟ هل تستطيع أن تحافظ على نفسها ولا يجرفها تيار الهوى والضلال وتكون قد ألبستهم ثوبا لا فكاك منه؟ هل ما أضَاعُوه عليها يرجون منه أملا مقابله؟ دارت أسئلة كثيرة في رأسه لكن أين الإجابات؟ فالإجابات موجودة تحملها تلك الفتاة.

وصلت الجامعة ونزلت بإحدى الغرف تضمّ أربع زميلات تمّ ترتيب الأوضاع على أكمل وجه وفي الصباح تحركت مع زميلاتها الأربعة وبعد المحاضرة تجمّع الطلبة في مجموعات مختلطة استنكرت ذلك أوّلا ثمّ أخذت تقترب شيئا فشيئا فكانوا يلبسون آخر صيحات الموضة ويضعون أحدث العطور ويشربون جميع أنواع العصائر والساندويتشات ويتحدّثون بعبارات لم تألفها أذها من قبل بدأت في الانسحاب تدريجيّا نظرت لنفسها عدة مرات ثمّ تطلعت عليهم ثمّ تغيّر اتّجاه نظراتها إلى الصورة الأولى التي ملأت بها عيونها وعقلها وعلّقتها في إطار في قلبها من تلك اللحظة هي صورة أسرتها والوضع الذي تركتهم فيه فهذه الصورة مطلوب منها تعديلها وتلوينها

بصورة أفضل وأجمل في المستقبل وهذا يتطلب التوكل على الله والجهد الكبير والسير في الطريق الصحيح وهذا يحتاج لنفس كبيرة مصونة بالصبر والثبات واليقين والابتعاد عن مغريات الحياة ومحنها المستحدثة اجتمعت بمجموعة يجمعهما السلوك الحميد والظروف المتشابهة وأنشأن علاقة حميمة تكافليّة لهن، كانت تلاحقهن العبارات الغراميّة والمعاكسات لكن لم يعرن لها اهتماما وتمضي السنوات وتحصل تلك المجموعة على أعلى الدرجات وكان الفرح الكبير وعادت تحمل الآمال والأحلام بتغيير الصورة للصورة المطلوبة وأتت بكلّ إجابات تساؤلات الأب وكانت إجابات شافية حوت كلّ معاني التضحية والالتزام بآمال كان ثمنها تضحية أسرة كاملة تتطلع لمستقبل مشرق.

★★★★★★

صبورة

توقف الزمن… عندما ارتمت في لجج ساقتها الأقدار فقرا وعوزا أجدب مساحة الحياة وبسط كفاف اليد أذرُعا طوالا بعد أن غادر زوجها الحياة باكرا، ترك إرثا ثقيلا، أفواه فارغة وبطون عشعش فيها الجوع واعتصرها الفراغ زمنا مهيلا.

كانت تحتضن مر الأيّام بلا شكوى وتضمّ بحضنها أطفالها الثلاث في جلد يكسر المستحيل ويخضع ظلمات الليل سكينة وصبرا جميلا، فلا اليدُ تزاور العطفَ والشفقة ولا اللسان يعرض حال أسند أمرها برضاء ويقين.

وتدور الأيّام خوالي وتتمدد الليالي عراضا تعتم مشوار الحياة بظلمات لا يُدانيها بصيص شعاع ولا مقبض أمل، كانت هي تحمل الجمال شرفا بازخا في ثنايا روح تجسّد الحقيقة لا الخيالات المستحيلة ولا تداني الزيف هونا وهوانا، حتى لاحت بشارة نور مغلفة التقاطيع اعتقدت أنّها منفذا تتسلل من خلاله بأمان فكان الثمن باهظا، وشرّا إن هي أقبلت عليه، وأوبت خيرا إن أدبرت، فكان يؤلمها كثيرا مرض أحد أطفالها وهي بين خيارات أوّلها مظلم وآخرها ظالم…

فتداولت صراعات طاحنة هزمت جيوش إخفاقات وسقوط نفس، وسلّمت بأنّ الحياة مرهونة بيع وشراء والعمر مقبوض بيد أقوى

والمرض أمر مسطر وله أوان شفاء والأطفال منحة تؤخذ ولن يطول في الدنيا بقاء فتعاطي دروب الصبر أقوى وأجمل في سلام وانتماء، فعلت وجهها ابتسامة تشعّ سناءً ثمّ لازت بالدعاء…

★★★★★★

نهـــــاية

تزدادُ دلالًا وتيها حين يرتدُّ صدى صوت أقدامه لمسامعها، تنثر الكلام، توشح اللحظة ثوبا أُرجوانيّا وتحيك الفضاء بيديها وشاح من الكمال، تهديها تيجان جمال مُستظرفٌ، تمزج البهجة بلون الفرحةِ الزاهي، تزجُ بعض عبارات تنِمُّ عنْ علو ثقافة هجين طُبع عليها التعليم هالةً من الشفافيّة والذوقِ السليم، فكانت شُعلة تتوهج تمحق كلّ ظلمة تسللت دانية لتخفي بريقها، وهي تمطر ساعات التلاقي همسا يتساقط رذاذا يحي أموات الشعور ويُزيل كآبة النّفس، كان يتشبع من ذاك الألق أوانا وسنينا مرتقبة، يضمّ يديه على صدره لتحتضن قلبا قليل الاحتمال، سرت فيه نشوة الحبّ واحتلّت قلاع روحه، يُمني نفسه بتسارع الأيّام لتكتمل الفرحة وتجتمع روحيهما فتصير واحدة، تحلّق أحلام تطوي بُعد المسافات في إلتحام أبدي، وترفرف الأفراح في كلّ المدى تزغرد أنغاما بألحان شجية، ترقص اللحظات نشوى بين أحضان التمني وانكسار المستحيل، فيلتقيان تحت سقف واحد بين أحضان المساء وارتعاشات المنى في صباحات تشرق آمالا مُضمخة العبير، فتنتشي الدنيا في بهاء نضر، يُؤرِق الإحساس بين مزاهر تفتح الأكمام يمتزج النّدى قطرات، تلثم الأزهار من نشر الرّبيع.

تطول السنوات ولم تظهر بوادر زهرة تثمر تلك العلاقة، طرقوا كلّ معينات الحياة بحثا وتهافتوا وهنا على وهن، فيصدر همسا بأنّه عقيم، تتوقف الحياة ويبرد كلّ عطر فاح أزمان فتحت الحياة أبوابها مشرعة، تطّلب الطلاق لأنّها لا تستطيع أن تَحرم دنياها الأمومة، تحتضن أطفالها وتدفق حنانها عليهم.

قال: وحبّنا وأيّام عشناها وسنوات رسمت صفحات حياة جميلة بينا؟

قالت: وما ذنبي في الحرمان؟

قال: إرادة اللّه تغلب.

قالت: مازال الطريق أمامي متاح لماذا لا تمنحني فرصتي؟ إن كان العقم وضعك في يقين إرادة اللّه فلا تكن أنانيّا، لو كنت عقيمة أنا ما ترددت في زواجك من أخرى.

قال: دعي التملق والفلسفة العمياء فأنا أحبّك رغم ما تقولين، قالت: وأنا أحبّك بعواطفي كُلّها لكنّ عقلي يرجّحُ الصواب، فما افترقت العواطف عن العقل إلّا وأصِيبت العلاقات بالفتور والنّهايات الأليمة.

قال: ثمّ ماذا؟ قالت: ادفن حُبّنا مكان افتراقنا ولتصحبنا الدعوات، فالتّضحية تحتاج قيمة نصبر لأجلها.

★★★★★★